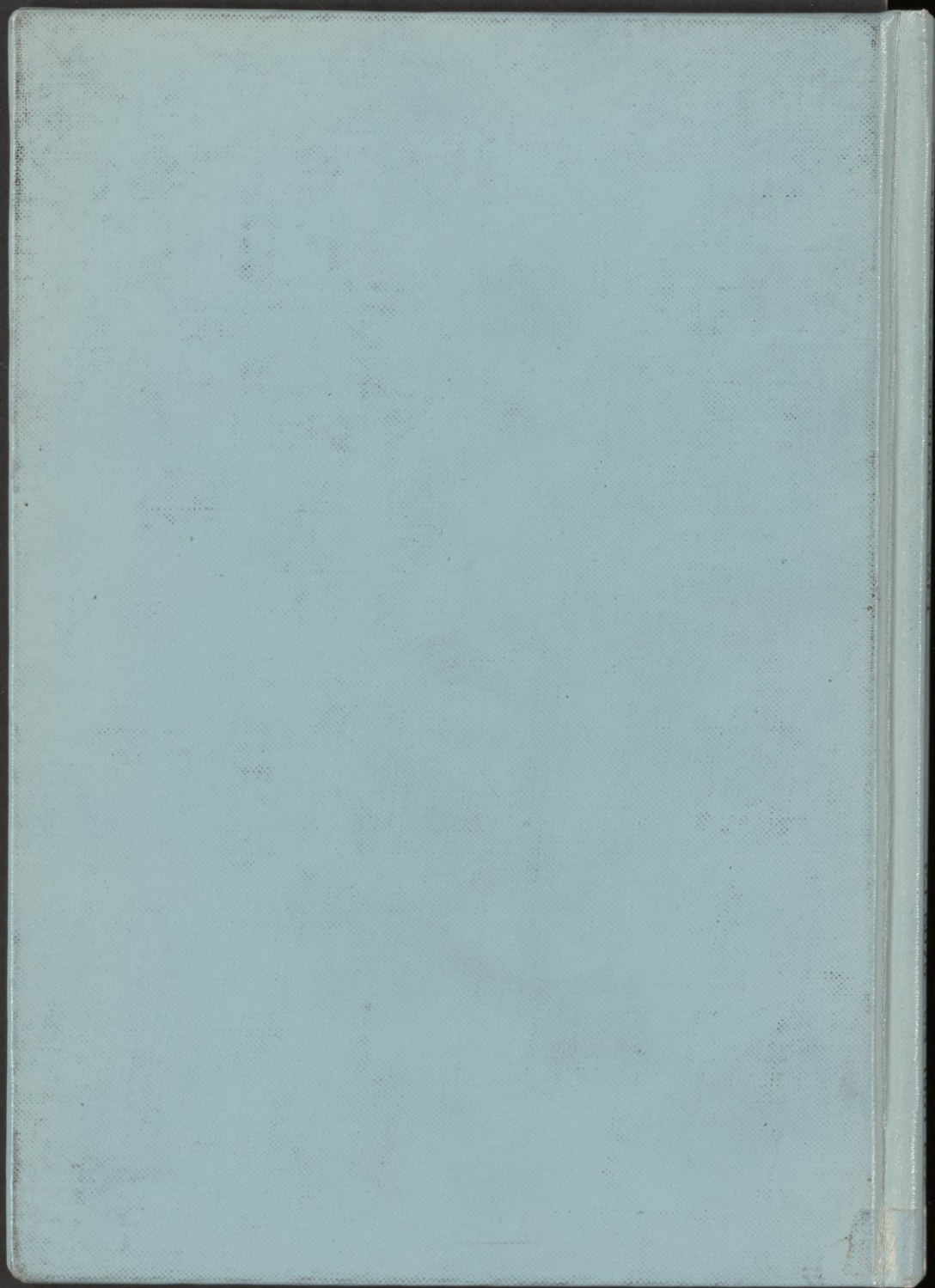
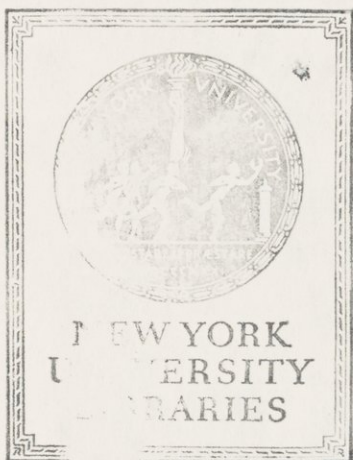




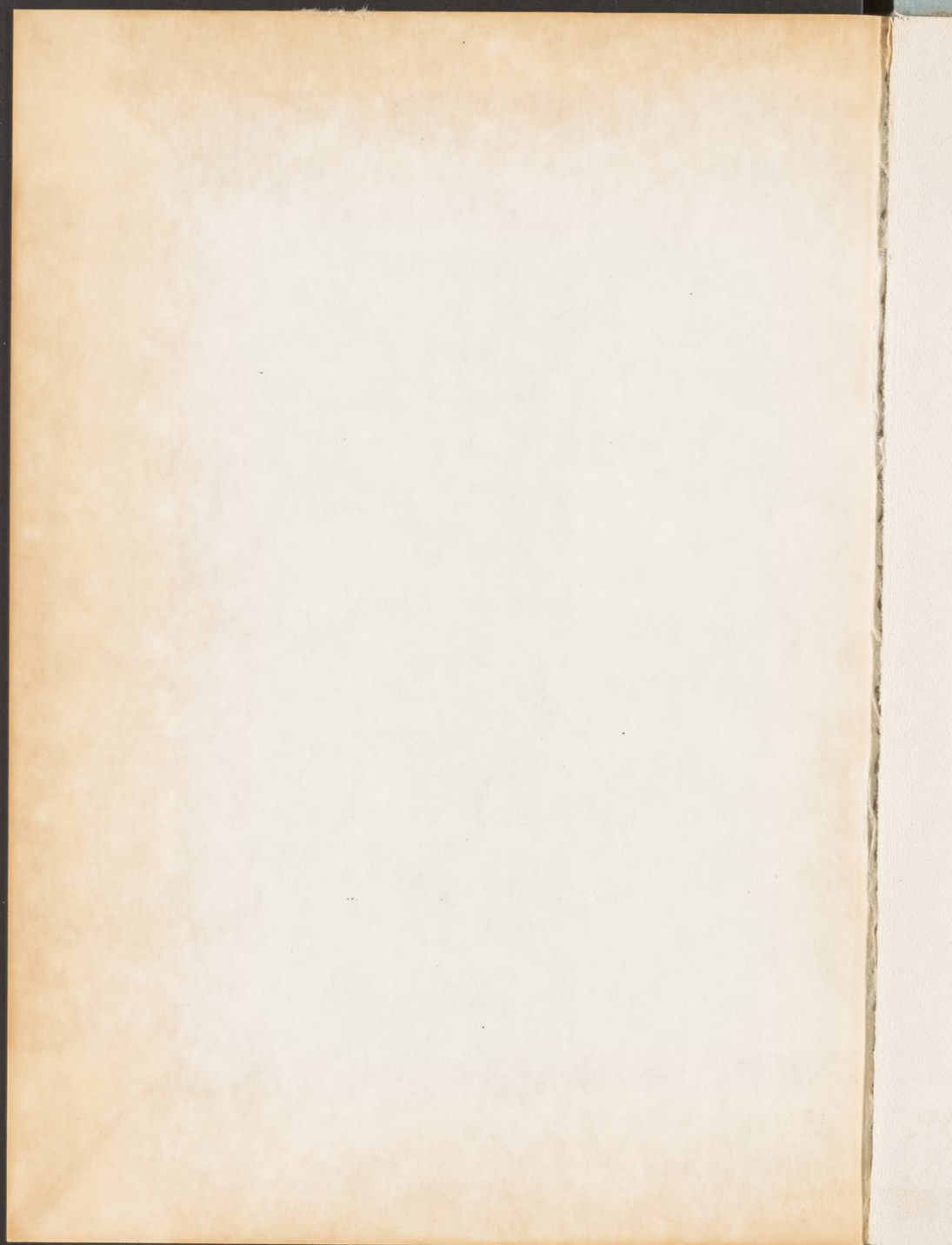
BOBST LIBRARY



3 1142 03183 1566



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY



Wāfī, 'Alī 'Abd al-Wahid

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

بمنزلة على إمدارها: الدكتور زمرود فهمي باشا رئيس الجمعية، والدكتور علي عبد الواحد رافعي وكيلها

اللغة والمجتمع

al-Lughah wa-al-Mujtama
تأليف

الدكتور علي عبد الواحد رافعي

دكتور في الآداب من جامعة باريس

أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

١٩٧٠م — ١٩٥١م

دار الخيانة للنشر والتوزيع
عيسى البابي الحلبي وشركاه

Near East

PJ

6075

.W3

1951

c.2

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الطبعة الأولى

تمتاز الظواهر الاجتماعية - وهي التي يتألف من دراستها موضوع علم الاجتماع La Sociologie - بصفات كثيرة من أهمها الخواص الثلاث الآتية :

١ - أنها تتمثل في نظم عامة يشترك في اتباعها أفراد مجتمع ما ، ويتخذونها أساساً لتنظيم حياتهم الجمعية ، وتنسيق العلاقات التي تربطهم بعضهم ببعض أو تربطهم بغيرهم .

٢ - أنها ليست من صنع الأفراد ؛ وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث من تلقاء نفسها عن حياة الجماعات ، ومقتضيات العمران . وهذا هو ما يعنيه علماء الاجتماع إذ يقررون أنها من « نتاج العقل الجمعي » .

٣ - أن خروج الفرد على نظام منها يلقى من المجتمع مقاومة تأخذه بعقاب مادى أو أدبى ، أو تلغى عمله وتعتبره كأنه لم يكن ، أو تحول بينه وبين ما يبتغيه من وراء مخالفته وتجعل أعماله ضرباً من ضروب العبث العقيم ، أو تسلط عليه

أكثر من جزاء واحد من هذه الجزاءات^(١) .

وهذه الخواص الثلاث تتوافر في اللغة على أكل ما يكون :

فاللغة في كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد في اتباعه ، ويتخذونه أساساً للتعبير عما يحول بخواطرهم ، وفي تفاهمهم بعضهم مع بعض .

واللغة ليست من الأمور التي يصنعها فرد معين أو أفراد معينون ، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبت عن الحياة الجمعية ، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر ، وتبادل للأفكار . وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاماً لغوياً يسير عليه مجتمعه ، فيتلقاه عنه تلقياً بطريق التعلم والتقليد ، كما يتلقى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى ، ويصب أصواته في قوالبه ، ويحتذيه في تفاهمه وتعبيره .

واللغة من الأمور التي يرى كل فرد نفسه مضطراً إلى الخضوع لما رسمه . وكل خروج على نظامها ، ولو كان عن خطأ أو جهل ، يلقى من المجتمع مقاومة تكفل رد الأمور إلى نصابها الصحيح ، وتأخذ المخالف ببعض أنواع الجزاء . فإذا أخطأ فرد في نطق كلمة ما ، أو استخدمها في غير مدلولها ، أو خرج في تركيب عبارته عن القواعد التي رسمها لفته ، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه ، ورموه بالغفلة والجهل ؛ وقد يحول ذلك دون فهمهم لما يريد التعبير

(١) يرجع الفضل في إبراز هذه الخواص وتوضيحها إلى العلامة دوركايم في كتابه : «قواعد المنهج الاجتماعي» Durkheim : Les Règles de la Méthode Sociologique

عنه . وليس هذا مقصوداً على الخطأ الذى يسع الناطق إصلاحه ، بل إن الخطأ الذى لا يمكنه إصلاحه ، لنشأته مثلاً عن خلل طبيعى فى أعضاء النطق ، قد يثير هو نفسه لدى السامعين بعض ما يثيره غيره من الأخطاء ، ويجر على صاحبه بعض آلام ومتاعب فى تعبيره وتفاهمه ^(١) . وإذا حاول فرد أن يخرج كل الخروج على النظام اللغوى ، بأن يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها ، فإن عمله هذا يصبح ضرباً من ضروب العبث العقيم ، إذ لن يجد من يفهم حديثه ، ولن يستطيع إلى نشر مخترعه هذا سبيلاً .

فاللغة إذن ظاهرة اجتماعية . وهى بوصفها هذا تؤلف موضوعاً من موضوعات علم الاجتماع ^(٢) . وسندرسها فى هذه الرسالة على منهج هذا العلم ومن وجهة نظره وأغراضه .

ودراسة أية ظاهرة اجتماعية على منهج علم الاجتماع ومن وجهة نظره وأغراضه تقتضى على الأخص توضيح حقيقتين هامتين :

- (١) من طريف ما يروى فى هذا الصدد أن بعض خطباء العرب المصايين باللغة كانوا يرهقون أنفسهم عسراً من أمرهم فى إعداد خطبهم حتى لا يبدو فيها أثر للثغمة ، فكانوا يحرسون على ألا تشتمل أية كلمة منها على الصوت الذى لا يقوى لسانهم على النطق به من مخرجه الصحيح .
- (٢) أنشأ علماء الاجتماع لدراسة اللغة بوصفها هذا فرعاً هاماً من فروع علمهم سموه « علم الاجتماع اللغوى » أو « السوسيلوجيا اللغوية » *Sociologie Linguistique* . وقد تضافر على النهوض بهذا الفرع أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى أنشأها العلامة دوركايم *Durkheim* فى أوائل القرن الحاضر وطائفة من أئمة علماء اللغة انضمت إلى هذه المدرسة واعتنقت مذهبها ، ومن أشهرهم الأساتذة دوسوسور وميه وفندريس *De Saussure; Meillet; Vendryes*

(إحداها) القوانين التي تخضع لها هذه الظاهرة في حياتها وتطورها
وما يعتورها من شئون .

(وثانيتها) مبلغ تأثرها بما عداها من الظواهر الاجتماعية الأخرى .
وهاتان الحقيقتان هما اللتان سنعي بتوضيحهما في هذه الرسالة . وسنوضحهما
على ضوء دراستنا لثلاثة موضوعات يتمثل فيها أهم ما يعتور اللغة في حياتها .
وهي : تطور اللغة ؛ وصراع اللغات بعضها مع بعض ؛ وتفرع اللغة الواحدة
إلى لهجات ولغات .

وسوف يظهر لنا من دراستنا لهذه الموضوعات الثلاثة أن اللغة - شأنها في
ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى - لا تسير تبعاً للأهواء والمصادفات ،
ولا وفقاً لإرادة الأفراد ؛ وإنما تخضع في سيرها لقوانين ثابتة مطردة ، لا يد
لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدي إليه . وهذه هي أولى الحقيقتين اللتين
يدور حولهما محور بحثنا في هذه الرسالة .

وسوف يظهر لنا كذلك من دراستنا لهذه الموضوعات الثلاثة أن اللغة
- شأنها في ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى - ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما عداها
من ظواهر العمران ، وأن أهم العوامل التي تؤثر فيها ترجع إلى هذه الظواهر .
وهذه هي ثانية الحقيقتين اللتين تتجه دراستنا إلى إبرازهما في هذه الرسالة .

غير أنه سيظهر لنا كذلك أن اللغة قد تتأثر في بعض نواحيها ، بظواهر
غير اجتماعية كالظواهر الفيزيولوجية والنفسية والجغرافية ؛ وإن كان أثر هذه

الظواهر ليس شيئاً مذكوراً بجانب أثر الظواهر الاجتماعية الخالصة .
ولذلك سنعمل في خاتمة الكتاب ، بعد أن نستخلص الحقيقتين السابقتين ،
على تحرير الحقيقة الثانية منهما في صورة تضع الأمور في نصابها الصحيح ،
وتبين فساد ما يذهب إليه بعض المتطرفين من علماء الاجتماع كالعلامة دوسوسور
De Saussure ومن نحائمه إذ يقررون أن جميع المؤثرات في مظاهر اللغة
ترجع إلى مؤثرات اجتماعية .

فرسالتنا تشتمل إذن على ثلاثة فصول وخاتمة :

الفصل الأول في تطور اللغة ؛

والفصل الثاني في صراع اللغات بعضها مع بعض ؛

والفصل الثالث في انشعاب اللغة الواحدة إلى عدة لهجات ولغات ؛

وتتضمن الخاتمة خلاصة ما تهدينا إليه دراستنا في الفصول الثلاثة السابقة

بصدد الحقيقتين اللتين ترمي بحوثنا إلى توضيحهما ، وهما : القوانين التي تسير
عليها اللغة في مختلف مظاهر حياتها ؛ ومبلغ تأثيرها بالظواهر الاجتماعية الأخرى .

على عبد الواحد واني

ربيع الثاني سنة ١٣٧٠

يناير سنة ١٩٥١

الفصل الأول

تطور اللغة

تتأثر اللغة في تطورها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى ست طوائف :

(إحداهما) عوامل اجتماعية خالصة تتمثل في حضارة الأمة ، ونظمها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، وعقائدها ، ومظاهر نشاطها العملي والعقلي ، وثقافتها العامة ، واتجاهاتها الفكرية ، ومناحي وجدانها ونزوعها ... وهلم جراً .
(وثانيتهما) تأثر اللغة بلغات أخرى .

(وثالثتها) عوامل أدبية تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة ، وما تبدله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها في سبيل حمايتها والارتقاء بها .
(ورابعتها) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف .

(وخامستها) عوامل طبيعية تتمثل في الظواهر الجغرافية والفيزيولوجية .. وما إليها .

(وسادستها) عوامل لغوية ترجع إلى طبيعة اللغة نفسها وطبيعة أصواتها وقواعدها وممتنها ... وهلم جراً . وذلك أن عناصر اللغة نفسها قد تنطوى على بعض نواح تؤثر في تطورها .

وستقف على كل طائفة من هذه الطوائف الست فقرة خاصة ؛ ثم نختم الفصل بفقرة سابعة نستخلص فيها ما تهدينا إليه هذه الدراسة بصدد قوانين التطور اللغوى وأثر الظواهر الاجتماعية في سيره^(١) .

(١) أثر العوامل الاجتماعية في خصائص اللغة وتطورها

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة، ونظمها، وتقاليدها، وعقائدها، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ، ونظرها إلى الحياة ، وشؤونها الاجتماعية العامة ... وما إلى ذلك . فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صدها في أداة التعبير . ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب : فبالوقوف على المراحل التى اجتازتها لغة ما ، وعلى ضوء خصائصها في كل مرحلة منها ، يمكن استخلاص الأدوار التى مرّ بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم .

فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، ورق تفكيرها ، وتهذبت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معانى مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتراس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة ... وهلم جرّاً . واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول .

(١) سنقتصر في جميع فقرات هذا الفصل على ما يتعلق بالتطور اللغوى العام . أما التطور الناشئ عن صراع اللغات بعضها مع بعض أو عن انشعابها فسيكون موضوع الفصلين الثانى والثالث من هذا الكتاب .

فقد كان لا انتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربي الضيق الذى امتازت به مدينتهم فى عصر بنى أمية إلى الأفق العالمى الواسع الذى تحولوا إليه فى عصر بنى العباس ، كان لهذين الانتقالين أجل أثر فى نهضة لغتهم ورق أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة ، يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ، ويوسع نطاقها ، ويزيل ماعسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة فى التعبير والدلالة . وإن موازنة بين حالة اللغة العربية فى عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها فى عهد حضارتهم الإسلامية ، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية فى عصر ما وما كانت عليه فى الحضر فى نفس هذا العصر ، لأصدق برهان على ذلك . وإن البدوى الذى لم يلهمه شيطانه فى مدحه للأمير أحسن من قوله :

أنت كالكلب فى حفاظك للعهد د وكالتيس فى قراع الخطوب

قد استطاعت قريحته ، بعد أن هذبتها حضارة بغداد ، أن تجود بمثل قوله :
عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
ومظاهر النشاط الاقتصادى تطبع اللغة كذلك بطابع خاص فى مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة فى الأمم والمناطق تبعاً لاختلافها فى نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة (الزراعة ، والصناعة ، التجارة ، الصيد ، رعى الأنعام ... الخ) .

وقد تؤثر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها خارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتي .

واللغة مرآة يتعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها في شؤونهم الاجتماعية العامة . فعقائد الأمة ، وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والترتية وحياة الأسرة ، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة ... كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها : في الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب ... وهلم جرأً^(١) . وإليك مثلاً درجة القرابة التي تربط الفرد بكل من أسرة أبيه وأسرة أمه . فإن الأمم التي تسير نظمها الاجتماعية على إنزال هاتين الأسرتين منزلة واحدة تقريباً في درجة قرابتهما للفرد تطلق لفظها كلمة واحدة على كل من العم والخال *oncle, uncle* والعمة والخالة *tante, aunt* وابن العم أو العمة وابن الخال أو الخالة *cousin* وابنة العم أو العمة وابنة الخال أو الخالة *cousine* . على حين أن الأمم التي تفرق نظمها الاجتماعية بين هاتين الأسرتين في درجة قرابتهما للفرد تختلف في لفظها الكلمات الدالة على أفراد أسرة

(١) من أجل البحوث في هذا الموضوع وما يتصل به ما كتبه العلامة «ثانيه» في المجلد الثاني من مجلة «التربية» سنة ١٩٠٧ صفحات ٤٣٤-٤٦٣ تحت عنوان: «روح الأمة وطباعها ممثلة في لفظها» *V. Vannier : L'Esprit et les Mœurs d'une nation d'après sa langue (Revue Pédagogique 1907.T.2 p.p.434-463).*

الأب عن الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأم : العم ، الخال ، العمة ، الخالة ، ابن العم ، ابن العمة ، ابن الخال ، ابن الخالة ، بنت العم ، بنت العمة ، بنت الخال ، بنت الخالة (١) ... وإليك مثلاً آخر مبلغ اتجاه الأمة إلى مبادئ المساواة أو انحرافها نحو نظام الطبقات . فإن ما تسير عليه نظمها الاجتماعية بهذا الصدد يؤثر في مختلف نواحي لغتها حتى في ناحية القواعد . فمخاطبة المفرد بضمير الجمع تعظيماً له : (أرجو أن تفضلوا ...) ، وإجراء الخطاب في صيغة الإخبار عن الغائب : (يتفضل سيدي ...) ، كل ذلك وما إليه من أساليب التبجيل لا يبدو في اللغة إلا حيث ينحرف الناس عن مبادئ المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات . ولذلك يعد تطور هذه الضمائر في أمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها في هذه الشؤون . فالصراع في اللغة الفرنسية بين «tu» (أنت) و «vous» (أنتم) ، في مخاطبة المفرد ، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات في الشعب الفرنسي . فقد كانت الغلبة للضمير الأول في العصور التي سادت فيها مبادئ المساواة ، وللضمير الثاني في العصور التي وهنت فيها هذه المبادئ . ومثل هذا يقال في اللغة العربية . فقد كان العرب في جاهليتهم من أكثر الشعوب ميلاً إلى المساواة بين الأفراد ؛ ولذلك ساد في خطابهم ضمير المفرد ، ولم تبد في لغتهم مظاهر المبالغة في التبجيل . وقد سار القرآن على هذه الطريقة حتى في توجيه الخطاب إلى الله عز وجل . ولكنهم

(١) انظر كتابنا « الأسرة والمجتمع » الطبعة الثانية صفحات ٢٢ - ٢٧ .

لم يلبثوا بعد اتساع ملكهم، واحتكاكهم بالأمم الأخرى، وانغماسهم في الترف، ومحاكتهم لأبهة الفرس وأساليبهم في الحياة، واتجاه خاصتهم وأغنيائهم إلى الترفع عن الدهاء وطبقات المستضعفين، لم يلبثوا بعد هذا أن انحرفوا عن مبادئهم الأولى، فانحرفت معهم أساليب لغتهم، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع وإجراء الخطاب في صيغة الإخبار عن الغائب، ونفذت إليها ألفاظ «الحضرة» و «الجناب» ... وما إلى ذلك.

واختلاف الطبقات في بعض الأمم، وما يفصلها من فوارق في مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، كل ذلك يؤدي إلى التمييز بينها في المفردات التي تطلق على شئون كل طبقة منها. وإليك مثلا المفردات التي تطلق على أنواع الدخل والأجور؛ فإن مبلغ الاختلاف بين هذه المفردات في أمة ما ليسجل مبلغ الاختلاف بين طبقات هذه الأمة في مستوى الحياة، وإن الأصل اللغوي الذي يرجع إليه كل مفرد منها ليشير في صورة ما إلى عمل الطبقة التي يطلق على دخلها وإلى نشاطها الاقتصادي، ومنزلتها في سلم الطبقات. ففي اللغة الفرنسية مثلا يطلق لفظ خاص على كل من دخل المسكين، والخدم، وعامل اليومية، والعامل الدائم، والمثل، والصحفي، والقسيس، والجندي، والضابط، والموظف غير الحكومي، والموظف الحكومي، وصاحب المهنة الحرة كالطبيب والمحامي، والمالك الزراعي ومن إليه، والمساهم في شركة ما، والنائب البرلماني.. وهم جرا. وكل مفرد من هذه المفردات يشير أصله اللغوي في صورة ما إلى عمل

الطبقة التي يطلق على دخلها ، وإلى نشاطها الاقتصادي ، ومنزلتها بالقياس لما
عدها من الطبقات :

Les secours d'une indigent; les gages d'une domestique;
la pay d'un journalier ; le salaire d'un ouvrier; les feux d'un
acteur; les mensualités d'un journaliste; le cusuel d'un curé;
le prêt d'un soldat; le solde d'un officier; les appointements
d'un employé; le traitement d'un fonctionnaire; les honoraires
d'un médecin ou d'un avocat; les rentes d'un rentier; les
dividendes d'un actionnaire; l'indemnité d'un parlementaire ..
etc.

وكثيراً ما ينجم عن اختلاف الناس في طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الكلمات
وخروجها عن معانيها الأولى . ويؤدي إلى ذلك ما يوجد بين الجماعات الناطقة
باللغة الواحدة من فروق في الخواص النفسية ، وفي شئون السياسة ، والاجتماع ،
والثقافة ، والترفيه ، ومناحي التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة
الأسرة والتقاليد والعادات ... وما تزاوله كل طبقة من أعمال ، وتضطلع به
من وظائف ، والآثار العميقة التي تتركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المشتغلين
بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة
بصدد الأمور التي يكثر ورودها في حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ،
وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على
بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم ... وهلم جرا . فمن
الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالكلمات عن مدلولاتها

الأولى ، وتوجه معانيها في كل طبقة وفي كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها .

وتتشكل اللغة كذلك بالشكل الذى يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامعها ونظرها إلى الحياة . فأتجاه الإنجليز مثلاً إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية في مفرداتها ، وتراكيها ؛ حتى إنه ليقال فيها : « دفع زيارة أو تحية أو شكراً أو انتباهاً » و « أنفق وقته في كيت وكيت » و « تربح الساعة أو تخسر » « To pay visit, compliments, attention.. » ; « How can I pay you for all your goods » ; « He spent his time in.. » « The watch gains or loses »

بدلاً من « أدى زيارة » و « قدم تحية أو شكراً » و « أبدى انتباهاً » و « قضى وقته في عمل ما » و « الساعة تقدم أو تؤخر » .

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب في شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث كذلك صداه في لغتهم ألفاظها وتراكيبها . فاللغة اللاتينية لاتستحي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة . على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الخيل وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه الشؤون ، فتلجأ إلى المجاز في اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول : القبل ، الدبر ، قارب النساء ، لس امرأته ، قضى حاجته ... الخ . ولقد كان لها بهذا الصدد في ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة ، « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ؛ « واهجروهن في المضاجع » ؛ « لامستم النساء » ؛

« وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ؛ « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ؛ « فاعتزلوا النساء في الحيض » ؛ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا » ... وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ . وما يبدو في اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله في اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الشمالية منها . وأكثرها تحرجا في هذه الناحية اللغة الإنجليزية . فالبلطن مثلا لا يعبر عنه في لغة التخاطب الإنجليزية باسمه الصريح بل يطلق عليه في الغالب the stomach (أى المعدة) ^(١) ؛ وسراويل الرجل تطلق عليها أحيانا كلمة معناها الأصلي « ما لا يمكن التعبير عنه : Inexpressible ^(٢) ؛ وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها الأصلي « الجمع أو التركيب » Combination ^(٣) ... وهلم جرا .

وخصائص الأمة العقلية ، ومميزاتها في الإدراك والوجدان والنزوع ، ومدى ثقافتها ، ومستوى تفكيرها ومنهجها ، وتفسيرها لظواهر الكون ، وفهمها لما وراء الطبيعة ... كل ذلك وما إليه ينبعث كذلك صدها في لغتها ^(٤) .

(١) تختصر هذه الكلمة عادة في اللغة الدارجة فيقال tummy .

(٢) يطلق عليها غالبا في اللغة الدارجة كلمة «Pants» وهي اختصار كلمة « بنطالون » .

(٣) تطلق هذه الكلمة على لباس مؤلف من السراويل والقميص ، أما السراويل وحدها فيطلق عليها أحيانا كلمة Bloomer وهو اسم سيدة أمريكية Mrs Bloomer

اخترعت طرازاً منه فنسب إليها (وكان يحتوى على « جاكته » وقيص وسراويل ، ثم قصر استعمال الكلمة فيما بعد على السراويل) ؛ وأحيانا كلمة knickers وهي اختصار كلمة Knickerboker (وهذه الكلمة كانت في الأصل اسماً لشخصية روائية ألبسها المؤلف طرازاً خاصاً من السراويل ، ثم شاع استعمالها فيما بعد في سراويل السيدات) .

V. Vannier op. cit. (٤)

ففي الأمم البدائية الضعيفة التفكير ، المنحطة المدارك ، تغزر الكلمات الدالة على المحسات والأشياء الجزئية ، وتنعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعاني الكلية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط فيكثر فيها الخلط واللبس والإيهام ، وتعرف القواعد أو تكاد تعرف من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض ، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة . ومن هذا القبيل الشعوب الصينية : فلغاتها أولية ساذجة في نواحي الألفاظ والدلالة والقواعد ، تكفي للتعبير عن ضروريات الحياة وشئون الصناعة اليدوية والأدب السهل والتأمل الضحل ، ولكنها لا تتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمات ، حتى إنه لا يوجد فيها اسم للإله ، ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة بعبارات ملتوية مبهمّة مضطربة الدلالة في أذهان أهلها أنفسهم . وفي كثير من الأمم البدائية ينعكس في اللغة من مظاهر الاضطراب والإيهام ما يمتاز به عقليات الناطقين بها من سذاجة وقصور ، حتى إنها لا تكاد وحدها تبين عن معنى واضح دقيق ، وحتى إن أهلها أنفسهم ليضطربون في أثناء حديثهم إلى الاستعانة بالحركات اليدوية والجسمية لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة . فقد روى عن قبائل البوشيان Bochimans (عشائر بدائية تسكن جنوب أفريقية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يضطربون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية والجسمية التي تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتوضح مدلولاته^(١) . ويقرر علماء الإثنوجرافيا الذين

(١) انظر ريبو: تطور المعاني الكلية صفحة ٧٨ Ribot : L'Evolution des Idées Générales.

عنوا بدراسة السكان الأصليين بأمريكا وأستراليا وأفريقية أن عقليات هذه الشعوب لاتكاد تدرك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها ، وأن هذا القصور العقلى كان له صدى كبير فى لغاتهم ، فلا نكاد نجد فى كثير منها لفظا يدل على معنى كلى . وفى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء ، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ... وهكذا ؛ ولكن لا يوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم ^(١) . وفى لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ، ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل فى حالة تعلقه بالخبز ؛ ولفظ آخر للتعبير عنه فى حالة تعلقه باللحم ؛ وثالث فى حالة تعلقه بالزبد ؛ ورابع فى حالة تعلقه بالموز ... وهكذا ؛ ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل فى زمن ما ^(٢) . ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmanie (بقرب أستراليا) لا يوجد بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فإذا أرادوا وصف شئ لجأوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ؛ فيقولون مثلا : « فلان كشجرة كذا » إذا أرادوا وصفه بالطول ^(٣) .

وعلى العكس من ذلك الشعوب الهندية - الأوروبية حيث ينشط التفكير ، ويمتد الإدراك ، ويدق البحث ، وتتجه العقول إلى التأمل الفلسفى ، وتميل

(1) Ibid. 110. (2) Ibid. 173-174. (3) Ibid. 204 et suiv.

إلى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الإنساني تفسيراً علمياً يربطها بأسبابها وقوانينها العامة . ففي مثل هذه الشعوب تكثر في اللغات الألفاظ الدالة على المعاني الكلية ، والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة ، وتغزر أزمنة الأفعال ^(١) ، وتطول الجمل وتعدد أجزاؤها ، وتنوع الروابط وتختلف دلالاتها ؛ فتتسع للتعبير عن دقيق الوجدان ، وعميق الإدراك ، وحقائق الفلسفة والعلوم .

ويتطور مدلول الكلمة في لغة ما تبعاً لتطور الشؤون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول . فكل تطور من هذا القبيل يتجه بمدلول الكلمة وجهة خاصة ، ويتخرف به قليلاً أو كثيراً عن أوضاعه الأولى . والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات . فكلمة « القطار » مثلاً كانت تطلق في الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم في السفر وفي النقل ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي تبعاً لتطور وسائل المواصلات ، فأصبحت تطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . وكلمة « البريد » كانت تطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل ؛ ثم تغير الآن مدلولها تبعاً لتطور الطرق المستخدمة في إيصال الرسائل ، فأصبحت تطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية في العصر الحاضر . وكلمة الريشة Plume كانت

(١) ليس للفعل في معظم اللغات السامية إلا زمانان : فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (أمر ومضارع للحال أو للاستقبال) ؛ على حين أن له في اللغات الهندية - الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة . وقد بلغت هذه الأزمنة في اللغة الفرنسية أحد عشر زمناً في الجمل الإخبارية وحدها .

تطلق على آلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصلي تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشككة في صورة خاصة . وعبرة « بنى الرجل على امرأته » كانت تستخدم كناية عن دخوله بها ، لأن الشاب البدوي كان إذا تزوج يبنى له ولأهله خباء جديدا ؛ ولكنها فقدت الآن معناها الأصلي لانقراض هذا النظام ، وإن كانت لا تزال تستخدم كناية عن الزفاف . وقد جرت العادة في بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم في أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية ؛ ومن ثم جاءت عبارة *Envoyer aux galères* ، وجاء وصف *garlérien* ؛ ولكن تغير الآن مدلولها تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها .

وكثرة استخدام الكلمة في مدلول ما ، لحدوث ما يدعو إلى ذلك في شئون الحياة الاجتماعية وما يتصل بها ، يجردها — مع تقادم العهد — من مدلولها الأصلي ، ويقصرها على الناحية التي كثر فيها استخدامها .

فكثرة استخدام العام مثلا في بعض ما يدل عليه ، لسبب اجتماعي ما ، يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التي شاع فيها استعماله . ولدينا في اللغة العربية وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع . ؛ فمن ذلك جميع المفردات التي كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها في الإسلام في معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود ... وهلم جرا . فالصلاة مثلا

معناها في الأصل الدعاء ^(١) ثم شاع استعمالها في الإسلام في العبادة المعروفة لاشتغالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى أصبحت لاتنصرف عند إطلاقها إلى غير هذا المعنى . والحج معناه في الأصل قصد الشيء والاتجاه إليه ، ثم شاع استعماله في قصد البيت الحرام ، حتى أصبح مدلوله الحقيقي مقصوراً على هذه الشعيرة ... وقس على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة . ومن ذلك أيضاً كلمة « الرث » ، فقد كانت تطلق على الخسيس من كل شيء ، ثم قصر مدلولها على الخسيس مما يفرش أو يلبس لكثرة استخدامها في هاتين الطائفتين ؛ وكلمة « المدام » فهي في الأصل كل ماسكن ودام ، ثم شاع استعمالها في الخمر لدوامها في الدن أو لأنه يغلى عليها حتى تسكن ، فأصبحت لاتنصرف إلى غير هذا المعنى .

وكثرة استخدام الخاص في معان عامة عن طريق التوسع لسبب اجتماعي ما تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك مثلاً في اللغة العربية كلمات : البأس والورد والرائد والنجعة ... وهلم جرا . فالبأس في الأصل الحرب ، ثم كثر استخدامه في كل شدة فاكسب من هذا الاستخدام عموم معناه ؛ وأصل الورد إتيان الماء وحده ، ثم صار إتيان كل شيء ورداً لكثرة استخدامه في هذا المعنى العام ؛ والرائد في الأصل طالب الكلاء ثم صار طالب كل حاجة رائداً ؛ والنجعة في الأصل طلب الغيث ، ثم عممت في الاستخدام فأصبح كل طلب انتجاعاً . ومن ذلك في اللغة الفرنسية كلمة *salaire* : فقد كان معناها في الأصل

(١) وقد جاء على الأصل قوله تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

— كما تدل على ذلك بنيتها — ما يصرف للجندى من نقود في نظير ما يحتاج إليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها في كل أجرة حتى نسي معناها الأصلي ؛ وكلمة arriver : فقد كانت تدل في الأصل — كما تشير إلى ذلك بنيتها — على الوصول إلى الشاطئ ، ثم شاع استعمالها في كل وصول فاستقر معناها على هذا الوضع العام .

وكثرة استخدام الكلمة في معنى مجازي لسبب اجتماعي ما يؤدي غالباً إلى انقراض معناها الحقيقي وحلول هذا المعنى المجازي محله . فمن ذلك مثلاً في اللغة العربية كلمات المجد والأفن والوغى والغفران والعقيقة ... وهلم جرا . فالجد معناه في الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازاً في الامتلاء بالكرم حتى انقراض معناه الأصلي وأصبح حقيقة في هذا المعنى المجازي ؛ ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الأفن » من قلة لبن الناقة إلى نقص العقل ؛ وانتقل معنى « الوغى » من اختلاط الأصوات في الحرب إلى الحرب نفسها ؛ ومعنى « الغفر » و « الغفران » من الستر إلى الصفح عن الذنوب ؛ ومعنى « العقيقة » من الشعر الذي يخرج على الولد من بطن أمه إلى ما يذبح عند خلق ذلك الشعر .

وكثرة استخدام الكلمة في العبارات المنفية ينزع عنها معناها الأصلي ويكسبها معنى العموم والإطلاق ، فتصبح أشبه شئ بأداة من أدوات النفي : فمن ذلك في اللغة العربية كلمات أحد وديار وقط وأبدا ... وما إليها ؛ وفي اللغة الفرنسية كلمات pas, rien : personne...etc.

واستخدام الكلمة في فن ما بمعنى خاص يجردها في هذا الفن من معناها اللغوي ويقصرها على مدلولها الاصطلاحي. ويدخل في هذا مصطلحات الآداب والفلسفة والقانون والاجتماع والعلوم والفنون ... وما إلى ذلك. ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة تستعمل في الشعر بمعنى ، وفي الرسائل بمعنى آخر ، وفي السياسة بمعنى ثالث ، وفي القانون بمعنى رابع ، وفي الفنون الحربية بمعنى خامس ، وفي الطبيعة بمعنى سادس ، وفي الطب بمعنى سابع ... وهلم جرا .

وإلى مقتضيات الحياة الاجتماعية وشؤونها ترجع كذلك أهم الأسباب في نشأة كلمات لم تكن موجودة في اللغة من قبل ، وفي هجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضا تاما . فأهم العوامل التي تدعو إلى نشأة كلمات في اللغة ترجع إلى مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث اجتماعي جديد: نظام حديث في الشؤون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها ؛ نظرية جديدة علمية أو فلسفية ؛ مخترع مادي جديد ... وهلم جرا . وأهم العوامل التي تؤدي إلى انقراض كلمة من الاستعمال ترجع إلى انقراض مدلولها نفسه من نطاق الحياة الاجتماعية أو إلى عدم استخدامها . ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية التي انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها . فقد انقرض في العربية كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية قضى

عليها الإسلام ، كالمربع والصورة والنوافج^(١) . وانقرض في الفرنسية لهذا العامل وما يتصل به كلمات كثيرة منها :

veste, casaquin, cabas, carosse, soupentes, briquet, pacotille, corvette, frégate, brulot, boulet, arpent, écu, liard, toise...etc^(٢)

(٢) تأثر اللغة بلغات أخرى^(٣)

من المقرر أن أى احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين - أيًا كان سبب هذا الاحتكاك ، ومهما كانت درجته ، وكيفما كانت نتائجها الأخيرة - يؤدي لامحالة إلى تأثر كل منهما بالأخرى . وغنى عن البيان أنه من المتعذر أن أن تظل لغة ما بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى . ولذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد عن هذا الطريق .

ولما كان الاحتكاك بين اللغات هو نتيجة لازمة للاحتكاك الاجتماعى بين الشعوب الناطقة بها ، لذلك كانت الدعائم التى يعتمد عليها التطور الناشئ عن هذا العامل لا تختلف فى شئ عن الدعائم التى يعتمد عليها التطور الناشئ عن

(١) المربع ربع الغنيمة ، كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية ؛ والصورة هو الذى يدع النكاح تبلا ، أو الذى يحدث حدثا ويلجأ إلى الحرم ؛ والنوافج الإبل تساق فى الصداق .

(2) Dauzat, Philosophie du langage, p.p. 228 et suiv.

(٣) سنقتصر كلامنا هنا على التأثير السطحى الذى يقف عند حد الاقتباس بين اللغات ؛ لأن التأثير العميق الذى ينشأ عن صراع جدى بين اللغات سيكون موضع الكلام عليه الفصل الثانى من هذا الكتاب .

العوامل المشار إليها في الفقرة السابقة . فكلاهما يرجع إلى ظواهر الاجتماع وتدعو إليه مقتضيات العمران ؛ وكلاهما تنعكس فيه ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية العامة ويتمثل فيه بعض مقومات المجتمع وأبجاءاته وما يكتنفه من شئون . وكل ما بينهما من فرق أن عناصر التطور المشار إليها في الفقرة السابقة هي عناصر داخلية خالصة ؛ على حين أن عناصر هذا التطور ترد إلى اللغة من الخارج .

ومن ثم يختلف ما تأخذه لغة عن أخرى باختلاف العلاقات التي تربط الشعبين وما يتاح لهما من فرص للاحتكاك المادى والثقافى . فكما قويت العلاقات التي تربط أحدهما بالآخر ، وكثرت فرص احتكاكهما نشطت بينهما حركة التبادل اللغوى . ولذلك تبلغ هذه الحركة أقصى شدتها حينما يسكن الشعبان منطقة واحدة أو منطقتين متجاورتين . - فالإنجليزية قد أخذت عن النورماندية أكثر مما أخذته عن أية لغة أخرى ؛ لأن الغزاة من النورمانديين قد استقر بهم المقام فى نفس بلاد الإنجليز الغلوين . واللاتينية قد اقتبست من الإغريقية أكثر مما اقتبسته من أية لغة أخرى ؛ وذلك لتجاور منطقتيهما وشدة الامتزاج بين الشعبين الناطقين بهما . ولهذا السبب نفسه بلغت حركة التبادل اللغوى أقصى شدتها بين العربية والفارسية والتركية . وما اقتبسته ألمانية سويسرا من اللغة الفرنسية لا يذكر بجانبه ما اقتبسته ألمانية النمسا مثلاً ؛ وذلك لأن القسم الألمانى اللغة فى سويسرا متأخم للقسم الفرنسى اللغة ولشدة الاحتكاك بين سكان القسمين ، على حين أن النمسا غير متأخرة لمنطقة فرنسية اللسان . وقد

تسرب إلى لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبتين الصقلية والمجرية ،
على حين أن أخواتها اللاتينية الأصل (الفرنسية والإيطالية والإسبانية
والبرتغالية... الخ) لم تكد تتأثر بهذين اللسانين ؛ وذلك لأن رومانيا قد انعزلت
عن أخواتها اللاتينية وأحاط بها من جميع جهاتها أم صقلية اللسان أو مجريته .
ومن ثم كذلك نرى أن المفردات التي تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات
يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل تلك اللغات أو برّزوا فيها أو امتازوا
بإنتاجها أو كثرة استخدامها وأخذها منهم أو اعتمد عليهم فيها أهل هذه اللغة .
فعظم ما انتقل إلى العربية من المفردات الفارسية واليونانية يتصل بنواح مادية
أو فكرية امتاز بها الفرس واليونان وأخذها عنهم العرب ^(١) . ويتألف معظم

(١) من أشهر المفردات التي انتقلت إلى العربية من الفارسية : الكوز ، الإبريق ،
الطست ، الخوان ، الطبق ، والسكرجة ، السمر - الحز ، الديباج ، الستس - الياقوت ،
الفيروزج ، البلور - السמיד ، الكعك ، الفالودج - الفلفل ، الكرويا ، القرقة ، الزنجبيل ،
الخولجان ، الدارصيني - النرجس ، البنفسج ، السوسن ، الياسمين ، الجلنار - المسك ، الغبر ،
الكافور ، الصندل ، القرنفل ... الخ .

ومن أشهر ما أخذته العربية من اليونانية أسماء بعض آلات الرصد والجراحة وبعض
مصطلحات الطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها ، وأخذت عنها كذلك أسماء
بعض المعادن والوظائف والمباني والموازين والأمتعة ... الخ :
كالقبرس (وهو أجود النحاس) ، والبطريق ، والقيطون (وهو البيت الشتوى) ، والقفطرة ،
والفردوس (البستان) ، والقراميد (الآجر) ، والقسطاس (الميزان) ، والقفطار ، والبطاقة ،
والسججل (المرأة) ... وهلم جرا .

انظر في ذلك فقه اللغة للثعالى ، الباب التاسع والعشرين ؛ وانظر كذلك المزهري للسيوطى
الجزء الأول ، النوع التاسع عشر .

الفردات التي أخذتها الإنجليزية عن النورماندية من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهي والطعام ؛ وذلك لأن النورماندين كانوا يفوقون الإنجليز كثيراً في هاتين الناحيتين اللتين تمثل إحداها مظهراً راقياً من مظاهر التفكير العام ، وتمثل ثانيتهما ناحية من نواحي الترف الاجتماعي ؛ فغزت مفرداتهما في لغتهم بينما قل ورودها في لغة الإنجليز القديمة . وإلى اقتباس الإنجليزية من النورماندية الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهي وألوان الطعام يرجع السبب فيما يمتاز به الإنجليزية من أسلوب غريب في تسمية الحيوانات المأكولة اللحم . فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها في الإنجليزية اسمان : اسم سكسوني الأصل يطلق على الحيوان مادام حياً لا علاقة له بشئون المائدة *cheep. calf, ox, pig* واسم آخر مقتبس من النورماندية يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للغذاء *mutton, veal, beef, pork* . وقد انتقل إلى اليونانية ، ومنها إلى اللاتينية ، كثير من الكلمات الفينيقية المتصلة بشئون الملاحة والبحرية ؛ وذلك لأن الفينيقيين قد سبقوا غيرهم من الشعوب في هذا المضمار . وانتقل إلى اللاتينية كثير من الكلمات الإغريقية المتعلقة بالمصطلحات الفلسفية والدينية ؛ وذلك لبراعة الإغريق في ميدان الفلسفة ولأن الدين المسيحي قد انتشر بفضلهم في شرق الامبراطورية الرومانية ووسطها . وقد أخذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيراً من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع والسياسة ... وما إليها ؛ وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين في جميع هذه

الشئون^(١). ولهذا السبب نفسه انتقل إلى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشئون الحرب ومنها كلمة الحرب نفسها *la guerre*^(٢) ، وكثير من الكلمات الإيطالية المتصلة بالموسيقى وآلاتها والفنون الجميلة ؛ وانتقل إلى معظم اللغات الأوروبية وغيرها المفردات الإنجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية ، والمفردات الفرنسية المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام .

ومن أجل ذلك تنتقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماءها في لغة المناطق التي ظهرت فيها لأول مرة أو اشتهرت بإنتاجها أو تصدر منها في الغالب ، فتنتشر عن هذا الطريق في لغات البلاد الأخرى . فكلمة «الشاي» مثلاً قد انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة جزر « ماليزيا » *Malaisie* التي كانت المصدر الأول لهذه المادة (« شاي » في العربية ، « thé » في الفرنسية ، « tea » في الإنجليزية ... الخ) وكذلك كلمة الطباق ؛ فقد انتقلت إلى معظم اللغات الإنسانية من لغة السكان الأصليين لأمريكا حيث كشفت هذه المادة لأول مرة (« طباق » في العربية ، « tabac » في الفرنسية ، « tobacco » في الإنجليزية ... الخ) . وعن هذا الطريق انتقل إلى اللغات الأوروبية كثير من الكلمات العربية الدالة على منتجات زراعية أو صناعية : كالليمون ، والموصلي (وهو نسيج خاص ينسب إلى الموصل) ، والزعفران ، والشراب ، والسكر ،

V. Dausat : Philosophie du Langage, 105 (١)

(٢) فهي مأخوذة من الكلمة الجرمانية القديمة Werra .

والكافور ، والقنوة (عسل قصب السكر المجد) ، والقهوة ، والقطن ،
والقرمزي ، والكمون ، والدمشقي (نسيح ينسب إلى دمشق) :

في الإنجليزية : lemon, muslin, saffron, sherbet, syrop, sugar,
camphor, candy, coffee, cotton, crimson, cumin, damask.

وفي الفرنسية : limon, mousseline, safran, sorbet, sirop, sucre,
camphre, candi, café, coton, cramoisi, cumin, damas.

وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثير هي الناحية المتعلقة بالمفردات . ففي هذه
الناحية على الأخص تنشط حركة التبادل بين اللغات ، ويكثر اقتباسها بعضها
من بعض . وقد تذهب بعض اللغات بعيداً في هذا السيل ، فتقتبس معظم
مفرداتها أو قسماً كبيراً منها عن غيرها ؛ كما فعلت التركية مع الفارسية والعربية ،
والسريانية مع اليونانية ، والفارسية مع العربية . وأما القواعد وأساليب الصوت
فلا تنتقل في الغالب من لغة إلى أخرى إلا بعد صراع طويل بين اللغتين ،
ويكون انتقالها إيذاناً بقرب زوال اللغة التي انتقلت إليها واندماجها في اللغة
التي انتقلت منها ، وإيذاناً في الوقت نفسه بأن حضارة الشعب الذي انتقلت إليه
هذه الأمور قد أخذت تتلاشى في حضارة الشعب الذي انتقلت منه ، كما سيأتي
بيان ذلك في صراع اللغات ^(١) .

ولهذا تخضع في الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية في اللغة التي
اقتبستها ولقومات هذه اللغة ؛ فينالها كثير من التحريف في أصواتها وطريقة

(١) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب .

نطقها ، وتبعد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة . فالكلمات التي أخذتها العربية مثلاً عن الفارسية أو اليونانية قد صبغ معظمها بصبغة اللسان العربي ، حتى بعد كثيراً عن أصله . ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة قد تنتقل من لغة إلى عدة لغات ، فتتشكل في كل لغة منها بالشكل الذي يتفق مع أساليبها الصوتية ومناهج نطقها ، حتى تبدو في كل لغة منها غريبة عن نظائرها في اللغات الأخرى . فالكلمات العربية مثلاً التي انتقلت إلى اللغات الأوروبية قد تمثلت في كل لغة منها بصورة تختلف اختلافاً غير يسير عن صورتها في غيرها .

وكثيراً ما ينال معنى الكلمة نفسه تغيير أو تحريف عند انتقالها من لغة إلى لغة أو من لهجة إلى أخرى وفق ما تقتضيه الظروف الاجتماعية المحيطة بهذا الانتقال : فقد يخصص معناها العام ويقصر على بعض ما يدل عليه ؛ وقد يعمم مدلولها الخاص ؛ وقد تستعمل في غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين ؛ وقد ننحط إلى درجة وضعية في الاستعمال فتصبح من فحش الكلام وهجره ؛ وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه ... وهلم جرا^(١) .

(١) قد ضرب العلامة دوزا Dauszat في كتابه فلسفة اللغة Philosophie du

Langage أمثلة لطريقة لهذه الظواهر (انظر صفحتي ١١٠ ، ١١١ من كتابه هذا) .

(٣) العوامل الأدبية

تشمل هذه الطائفة جميع ما تجود به القرائح من وسائل ومنتجات تؤدي إلى حفظ اللغة ، وتعليمها ، وتوسيع نطاقها ، وتكملة نقصها ، وتهذيبها من نواحي المفردات والقواعد والأساليب ، وتسجيل آثارها ، واستخدامها في مختلف فروع الترجمة والتأليف ... وهلم جرا .

ولما كانت هذه المنتجات الأدبية تسير حضارة الأمة ، وترسم نهضة المجتمع ، وتتأثر بجميع ما يطرأ على الحياة الاجتماعية من تطور ، وترجم عن عقلية الجماعة ونظمها ومطامحها ، ونظرها إلى الحياة وفهمها لحقائق الكون ، ومبلغ تقدمها في ميادين العلوم والفنون ، وما وصلت إليه في سلم الارتقاء ، لذلك كانت الدعائم التي يعتمد عليها التطور اللغوي الناشئ عن هذه العوامل الأدبية لا تختلف في شيء عن الدعائم التي يعتمد عليها التطور الناشئ عن العوامل المشار إليها في الفقرتين السابقتين : فكلاهما يرجع إلى ظواهر الاجتماع ، وتدعو إليه مقتضيات العمران ؛ وكلاهما تنعكس فيه ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية العامة ، ويتمثل فيه بعض مقومات المجتمع واتجاهاته وما يكتنفه من شؤون . وكل ما بينهما من فرق يرجع إلى أمور ظاهرية أكثر منها حقيقية ، ولا يكاد يعدو الناحيتين الآتيتين :

١ — أن آثار الأمور الأدبية تتجه أولاً وبالذات إلى لغة الكتابة ؛ بينما تتجه الطوائف السابقة في صورة مباشرة إلى لغة المحادثة .

وليس هذا إلا مجرد فارق سطحي ؛ لأن كل تطور يصيب إحدى اللغتين (لغة الكتابة أو لغة المحادثة) يتردد صدها في اللغة الأخرى . فآثار العوامل الأدبية التي نحن بصدددها - وإن اتجهت أولاً وبالذات إلى لغة الكتابة - لا تلبث أن تظهر في لغة المحادثة ؛ وآثار العوامل التي تكلمنا عنها في الفقرتين السابقتين - وإن اتجهت في صورة مباشرة إلى لغة المحادثة - تمتد لا محالة إلى لغة الكتابة .

٢ - أن العوامل الأدبية تبدو في صورة أمور مقصودة تسييرها الإرادة الإنسانية ؛ على حين أن الطوائف التي تكلمنا عنها في الفقرتين السابقتين تتمثل مظاهرها في أمور غير مقصودة ، تحدث من تلقاء نفسها ، وتبدو آثارها في صورة جبرية لا اختيار للإنسان فيها ، ولا يد له على وقفها أو تغيير ما تؤدي إليه .

وهذا الفارق كذلك ظاهري أكثر منه حقيقي ؛ لأن هذه الطوائف من العوامل - على ما يبدو في بعضها من قصد واختيار ، وفي بعضها الآخر من تلقائية وإجبار - تسيير جميعاً ، في حقيقة الأمر ، وفقاً للقوانين التي تسيير عليها الحياة الاجتماعية ، وتتجه جميعاً في السبيل التي يسلكها المجتمع في تطوره العام .

هذا ، وللعوامل الأدبية مظاهر كثيرة من أهمها : الرسم ؛ والتجديد في اللغة ؛ والبحوث اللغوية ؛ وحركة التأليف والترجمة . وسنتكلم على كل واحد من هذه الأمور الأربعة على حدة :

أولاً - الرسم :

لم يتح الرسم إلا لعدد قليل من اللغات الإنسانية . أما معظمها فقد اعتمدت حياته على مجرد التناقل الشفوى . فالشرط الأساسى لحياة اللغة هو التكلم بها لارسمها : فكثيراً ما تعيش اللغة بدون أن يكون لها سند تحريرى ؛ ولكن من المستحيل أن تنشأ لغة أو تبقى بدون أن يكون لها مظهر صوتى .

وعلى الرغم من ذلك فللرسم فى حياة اللغة ونهضتها آثار تجل عن الحصر . فبفضله تضبط اللغة ، وتدون آثارها ، ويسجل ما يصل إليه ذهن الإنسانى ، وتنتشر المعارف ، وتنتقل الحقائق فى الزمان والمكان . وهو قوام اللغات الفصحى ولغات الكتابة ودعامة بقاءها . وبفضله كذلك أمكننا الوقوف على كثير من اللغات الميتة كالسنسكريتية والمصرية القديمة والإغريقية واللاتينية والقوطية...؛ فلولا ما وصلنا من الآثار المكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا منها شيئاً ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوى .

وترجع أساليب الرسم التى استخدمت فى مختلف اللغات إلى أسلوبين اثنين :

(أحدها) أسلوب الرسم المعنوى *Idéographie, écriture idéographique*

وهو الذى يضع لكل معنى صورة خطية خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب

في لغات كثيرة منها الصينية^(١) والمصرية القديمة^(٢) . ولا نعلم على وجه اليقين أول أمة استخدمته ؛ ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنه أقدم أساليب الرسم الإنساني .

وترجع الصور الخطية التي تستخدم في هذا الأسلوب إلى نوعين . فأحياناً تكون صوراً حقيقية للأشياء التي يراد التعبير عنها أو لأجزاء من هذه الأشياء ؛ كما يشير الرسم المهيروغليفي إلى الشمس بدائرة في وسطها نقطة ، وإلى القمر بقوس في وسطه نتوء ، وإلى الزنبق بثلاث فروع من شجرتة في طرف

(١) يرتكز الرسم الصيني على ٢١٤ رمزا أصليا (تسمى بالمفاتيح clefs أو الأصول radicaux) ، يعبر كل رمز منها عن معنى عام ، ويعين المقصود منه عدد الخطوط التي تضاف إلى هذا الرمز ونوعها .

(٢) يسمى الرسم المصري القديم بالمهيروغليفي Hiéroglyphe . وقد اجتاز هذا الرسم أربع مراحل . فقد كان في المبدأ تصويراً للأشياء ؛ فيعبر عن الشمس مثلاً بدائرة في وسطها نقطة وعن القمر بقوس في وسطه نتوء ... وهلم جرا . ثم دخل فيه بعد ذلك طريقة الرموز البسيطة والمركبة ؛ فيعبر مثلاً عن اليوم بصورة الشمس (دائرة في وسطها نقطة) ، وعن الشهر بصورة نجمة تعلوها صورة قر مستعرضة (قوس في وسطه نتوء) . وفي المرحلة الثالثة دخلت فيه الطريقة الصوتية المقطعية ؛ فاستخدمت مثلاً الصورة التي كان يعبر بها قديماً عن الفم (وهي صورة الشفتين) للتعبير عن مقطع « را » . وفي المرحلة الأخيرة دخلت فيه الطريقة الهجائية ؛ فاستخدمت مثلاً الصورة السابقة لا للتعبير عن مقطع « را » بل للتعبير عن صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بحركة كما هو شأن الراء في الحروف الهجائية العربية . والمظهران الأولان فقط (الصوري والرمزي) هما اللذان يعدان من النوع الذي نحن بصدد الكلام عنه . أما المظهران الأخيران (المقطعي والهجائي) فمن النوع الثاني الذي سنتكلم عليه وهو الرسم الصوتي .

كل منها ثلاث زنبقات ، وإلى الصقر بصورته واقفا ... وهلم جرا . وأحيانا تكون مجرد رموز مصطلح عليها للتعبير عن الأشياء والمعاني *Symbolisme* ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفي إلى الشهر بصورة هلال في وسطه نجمة ، وإلى اليوم بدائرة في وسطها نقطة ؛ وكما يشير الرسم الصيني لمعنى « الإنسانية » بخطين يتكون منهما شكل يشبه رقم ٨ .

ولهذا الأسلوب من الرسم عيوب كثيرة . فهو أسلوب بطيء يقتضى الكاتب إسرافا كبيرا في الوقت والمجهود . ولكثرة صورته ورموزه تبعاً لكثرة المعاني والأشياء ، يقتضى تعلمه وتعليمه جهوداً شاقة وزمناً طويلاً . ولذلك يقتضى كثير من الصينيين زهرة شبابهم في المدارس بدون أن يتموا تعلم الرسم الصيني . وهو لا يقوى على تأدية وظيفته إلا في صورة ناقصة مبتورة ؛ إذ من المستحيل ، مهما كثرت صورته وتعددت رموزه ، أن ينتظم جميع ما يخطر بالذهن الإنساني من معان وأفكار وجميع ما ينطق به اللسان من ألفاظ وعبارات . هذا إلى أنه بمقتضاه لا يوجد للمعنى الواحد أكثر من صورة واحدة ؛ مع أنه في معظم اللغات الإنسانية ، كثيراً ما يوجد للمعنى الواحد عدة ألفاظ مترادفة . فاستخدامه في حالات كهذه يوقع في اللبس ويؤدي إلى الاضطراب .

(وثانيهما) أسلوب الرسم الصوتي *Ecriture phonétique, ou Phonétisme* الذى يضع لكل صوت صورة خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب من الرسم في كثير من اللغات القديمة ، ويستخدم الآن في معظم الشعوب المتمدينة .

وترجع الصور الخطية التي استخدمت في هذا الرسم إلى طائفتين : إحداها الصور المقطعية Syllabique وهي التي ترمز إلى مقاطع كاملة ، كما يرمز في الهيروغليفى بشكل الشفتين إلى مقطع « را » وفي المسامى بصورة اليد إلى مقطع « سو » ؛ والأخرى الصور الهجائية Alphabétique وهي التي ترمز إلى أصوات ساكنة كما يرمز في الرسم العربى بهذا الحرف : « ل » ، إلى صوت اللام مجردة من جميع الحركات .

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أول من استخدم هذا الأسلوب بنوعيه (المقطعى والهجائى) منذ أكثر من ثلاثين قرناً قبل الميلاد . فمن بين صور الخط الهيروغليفى ما يرمز إلى مقاطع صوتية (صورة الشفتين مثلاً التي تعبر عن مقطع « را ») ، بل من بينها ما يرمز إلى مجرد أصوات ساكنة (صورة الشفتين مثلاً التي أصبحت ترمز فيما بعد إلى صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بأية حركة ، كما هو شأن الراء في الحروف الهجائية العربية) . غير أن قدماء المصريين لم يستخدموا هذا الأسلوب وحده ، بل مزجوه بالأسلوب الأول . فالرسم الهيروغليفى خليط من الرسم الصوتى والرسم المعنوى ؛ يستخدم بجانب الصور المقطعية والهجائية ، صوراً حقيقية ورمزية ^(١) .

ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من استخدم الأسلوب الهجائى وحده . وقد اضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجارى وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف

(١) انظر صفحتى ٣٤ ، ٣٥ والتعليق الثانى بصفحة ٣٤ .

الشعوب فقد كانت هذه الشئون تقتضيهم في جميع أعمالهم السرعة في الحركة ، والاقتصاد في المجهود ، وتحري وجوه الدقة . والأسلوب الهجائي هو أسرع أساليب الرسم ، وأيسرها ، وأدناها إلى الكمال . وليس من شك في أنهم قد حاكوا في أسلوبهم هذا ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفي من صور هجائية . على أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا الخط نحو ثلاثة عشر حرفاً من حروفهم .

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية في معظم أنحاء العالم القديم واستخدمها كثير من شعوبه ؛ ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التي استخدمت فيما بعد في مختلف اللغات الإنسانية .

فمن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة ، ومن هذه اشتق الرسم العبرى الحديث (الحروف العبرية المربعة l'hébreu carré) الذي استخدم بعد رجوع بني إسرائيل من نفي بابل ، وظل مستخدماً إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريبا الشبه بالعبرية الحديثة (الحروف العبرية المربعة) : أحدهما الخط التدمري ^(١) (أو البلميري) والآخر الخط النبطي Nabatéen . ومن التدمري ^(٢) Palmyrénien) ؛ والآخرون الخط النبطي Nabatéen .

(١) نسبة إلى تدمر وهي مملكة قديمة كانت تشمل جزءاً كبيراً من سوريا الحالية . ومعنى تدمر في العبرية بلاد النخيل .

(٢) نسبة إلى البلميرين Palmyrène وهو اسم فرنسي لبلاد تدمر . ومعناه في الفرنسية هو نفس معنى تدمر في العبرية أي بلاد النخيل .

اشتقت الحروف السريانية التي أخذت منها الخطوط المغولية والمنشورية . ومن الخط النبطي والخط السرياني اشتقت حروف الهجاء العربية .

ومن الرسم الفينيقي أخذ كذلك الرسم الآرامي . بل إن الرسم الآرامي في أقدم أشكاله لا يكاد يختلف عن الرسم الفينيقي . وعن الآرامية أخذت الحروف الهندية الباكترانية Indo-Bactrien^(١) التي كانت مستخدمة في شمال الهند؛ ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن في مختلف لغات الهند وسيام Siam وكامبودج Cambodge (بالهند الصينية) وماليزيا Malaisie .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الإغريقي ؛ ومن الرسم الإغريقي أخذت الحروف اللاتينية ؛ ومن الرسمين اللاتيني والإغريقي تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة في مختلف اللغات الأوروبية في العصر الحاضر .

والأصل في الرسم الهجائي أن يكون معبراً تعبيراً دقيقاً عن أصوات الكلمة بدون زيادة ولا نقص ولا خلل في الترتيب ؛ فيرسم في موضع كل صوت من أصواتها الحرف الذي يرمز إليه ، ولا يوضع فيها حرف زائد لا يكون له مقابل صوتي . وقد حوفظ على هذا الأصل إلى حد كبير في بعض اللغات الإنسانية ، وخاصة القديم منها . فرسم الكلمة في السنسكريتية لا يكاد يختلف في شيء عن

(١) نسبة إلى باكتريان Bactriane وهي منطقة قديمة كان يسكنها الإيرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وفارس .

صوتها^(١) . ولكن معظم أنواع الرسم ، وخاصة الحديث منها لا تتوافر فيه هذه المطابقة . فكثيراً ما يرسم في الكلمة حرف زائد أو حروف زائدة ليس لها مقابل صوتي في النطق (مثلاً : « مائة » في العربية ؛ « loup » في الفرنسية ؛ « thamb » في الإنجليزية) . وكثيراً ما تشتمل الكلمة على أصوات لا تمثلها حروف في الرسم (مثلاً : « هذا » في العربية ؛ « picture » في الإنجليزية) . وكثيراً ما يرسم في الكلمة حرف أو أكثر للتعبير عن صوت غير الصوت الذي وضع له (« dompter » في الفرنسية ؛ « enough » ، « ocean » ، « of » في الإنجليزية) . وكثيراً ما ينطق بالحرف الواحد أو بالمقطع الواحد بصور صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف الكلمات ، أو اختلاف أزمنتها ، أو اختلاف موقعه فيها ، أو اختلاف ما يسبقه أو يلحقه من حروف ...؛ فيرقق في بعض الكلمات ويفخم في بعضها الآخر ، أو يمد في بعضها ويقصر في بعضها الآخر ، أو يضغط عليه في بعضها ويرسل في بعضها الآخر ... وهلم جرا (اللام في « والله » واللام في « بالله » « Law, low » ; « I get a piece of lead, I lead some men » ; « I will read this book, I have just read this book » ; « The lines of demarkation that separate sciences .., This book contains separate sciences » ; « I object against this way, The object of our book is ... ») .

(١) وقد ساعد على ذلك أن الرسم السنسكريتي لم يكد يغادر صوتاً من أصوات اللغة إلا وضع له حرفاً يرمز إليه . ولذلك كثرت حروف الهجاء في هذا الرسم ، وقويت على التعبير عن مختلف الأصوات . فقد بلغت ٤٦ حرفاً منها ٣٣ حرفاً ساكناً و ١٣ حرفاً ليناً ، هذا إلى ثلاث علامات للشكل .

و كثيراً ما تختلف الحروف في كلمتين ويتحد النطق بهما a piece of bread in time of peace.

ويرجع السبب في هذه الظواهر وما إليها إلى عوامل كثيرة من أهمها عاملان :

(أحدهما) أن حروف الهجاء في معظم أنواع الرسم لا تمثل جميع أصوات اللغة التي تكتب بها . فقد جرت العادة مثلاً في معظم أنواع الرسم ألا يوضع لكل صوت عام أكثر من حرف هجائي واحد ؛ مع أن الصوت العام كثيراً ما يندرج تحته أصوات مختلفة في مخرجها ونبرتها وقوتها ومدة النطق بها وما إلى ذلك . فالصوت العام للام مثلاً ليس له في معظم أنواع الرسم الحديثة إلا حرف واحد (ل L . . .) ؛ مع أن هذا الصوت يختلف نطقه باختلاف الكلمات والمواقع . فأحياناً ينطق به مرققاً (بالله ، low, hole) ، وأحياناً مفخماً (والله ، law) ؛ وتارة ينطق به مضغوطاً عليه (أقسم بالله) وأخرى ينطق به مرسلأ (يستعين بالله) . . . وهلم جرأ ؛ ورسمه واحد في جميع هذه الحالات . والصوت العام للألف اللينة ليس له في العربية إلا حرف واحد ؛ مع أنه أحياناً ينطق به مستقيماً ، وأحياناً ينطق به مملاً . والصوت العام للجيم ليس له في العربية إلا حرف واحد ؛ مع أنه في بعض اللهجات ينطق به مجرداً من التعطيش ، وفي بعضها ينطق به معطشاً كل التعطيش ، وفي بعضها ينطق به بين هذا وذاك .

(وثانيهما) أن أصوات اللغة في تطور مطرد وتغير دائم . فالأصوات التي تتألف منها كلمة مالا تجمد على حالتها القديمة ، بل تتغير بتغير الأزمنة والمناطق ، وتتأثر بطائفة كبيرة من العوامل الطبيعية والاجتماعية واللغوية : فأحياناً يسقط منها بعض أصواتها القديمة ، وأحياناً يضاف إليها أصوات جديدة ، وتارة يستبدل ببعض أصواتها أصوات أخرى ، وتارة تحرف أصواتها عن مواضعها فيختل ترتيبها القديم .. وقد ينالها أكثر من تغير واحد من هذه التغيرات . على حين أن الرسم لإيسائر النطق في هذا التطور ، بل يميل غالباً إلى الجمود على حالته القديمة أو ما يقرب منها ؛ فلا يدون الكلمة على الصورة التي انتهت إليها أصواتها ، بل على الصورة التي كانت عليها من قبل . وهذا هو منشأ الخلاف في معظم اللغات الأوروبية الحديثة بين النطق الحالى لكثير من الكلمات وصورتها في الرسم . فمعظم وجوه هذا الخلاف ترجع إلى جمود الرسم وتمثيله لصور صوتية قديمة نالها مع الزمن كثير من التغير في ألسنة الناطقين باللغة .

ومع ما للرسم من الفوائد الجليلة التي أشرنا إليها في صدر هذه الفقرة (١) ، فإن عدم مطابقته للنطق يجعل له بعض آثار ضارة . فهو يعرض الناس للخطأ في رسم الكلمات . ويجعل تعلم القراءة والكتابة لأهل اللغة أنفسهم من الأمور الشاقة المرهقة ، ويظيل زمن الدراسة ، فيسبب إسرافاً كبيراً في الوقت والمجهود . وما يلاقيه أهل اللغة من صعوبات بهذا الصدد يلاقى أضعافه

الأجانب الراغبون في تعلمها . ومن الواضح أن هذا يعوق انتشارها في الخارج ،
ويضيّق سبل الانتفاع بآدابها وعلومها ، فيصعب التفاهم بين الشعوب وتضعف
بينها حركة التبادل العلمى والثقافى . هذا إلى أن تمثيل الرسم لصور صوتية قديمة
يعمل على رجوع اللغة إلى الوراء وردها إلى أشكالها العتيقة . فكثيراً ما يتأثر
الفرد فى نطقه للكلمة بشكلها الكتابى ، فلا يلفظها بالصورة التى انتهى إليها
تطورها الصوتى ، بل ينطق بها وفق رسمها ، فتتحرف إلى الوضع الذى كانت
عليه فى العهود القديمة . وليس الأجانب وحدهم هم المعرضين لهذا الخطر ؛ بل إنه
كثيراً ما يصيب أهل اللغة أنفسهم . وإليك مثلاً الحرف المشدد فى اللغة الفرنسية
فى مثل *Savamment, évidamment* ... الخ . فقد كان ينطق به وفق رسمه
فى العصور الأولى لهذه اللغة . ثم انقرضت هذه الطريقة منذ عهد بعيد ؛ وأخذ
الفرنسيون ينطقون به مخففاً كما ينطقون بحرف واحد (*Savaman évidaman*) .
ولكن منذ أمد قريب أخذت عادة النطق به مشدداً تظهر فى السنة كثير منهم
تحت تأثير صورته الخطية . فمن جراء الرسم نكصت اللغة على عقبها فى هذه
الناحية عدة قرون إلى الوراء ^(١) .

ومن أجل ذلك كان العمل على إصلاح الرسم وتضييق مسافة الخلف بينه

(١) ومن ذلك أيضاً الحروف الساكنة (غير اللينة) فى آخر الكلمات ، فقد حذفت
فى النطق الفرنسى فى معظم المفردات منذ عهد بعيد . ولكن أخذ كثير من الفرنسيين
فى العهد الحاضر ينطقون ببعضها تحت تأثير صورتها الخطية : « *but* » (نطقها الصحيح *bu*)
قد تحولت الآن فى السنة الكثير من الفرنسيين إلى « *bute* » .

وبين النطق موضع عناية كثير من الأمم في مختلف العصور . - فقد ظهر في هذا السبيل بعض حركات إصلاحية عند اليونان والرومان في العصور السابقة للميلاد . وفي أواخر القرن التاسع عشر عالج الألمان أساليب رسمهم القديم وأصلحوا كثيراً من نواحيه . - ومثل هذا حدث منذ عهد قريب في مملكة النرويج ، ثم في جمهورية البرازيل . - وقد بدت بهذا الصدد محاولات إصلاحية كثيرة في البلاد الواطئة (هولندا) وانجلترا والولايات المتحدة ؛ ولكن معظم هذه المحاولات لم يؤد إلى نتائج ذات بال . - وأدخلت الأكاديمية الفرنسية ، يشد أزرها ويعاونها طائفة من ساسة فرنسا وعلمائها ، إصلاحات كثيرة على الرسم الفرنسي . وقد جانبت في إصلاحاتها هذه مناهج الطفرة واتبعت سبل التدرج البطيء . فكانت تدخل في كل طبعة جديدة لمعجمها ، بجانب التنقيحات اللغوية والعلمية ، طائفة من الإصلاحات الإملائية . وقد أقرت عام ١٩٠٦ مجموعة هامة من القواعد الجديدة في الرسم الفرنسي . هذا إلى إصلاحات العلامة جريار Gréard التي تناولت كثيراً من نواحي الرسم ، وأقرتها الأكاديمية الفرنسية . وكانت كل مجموعة من هذه الإصلاحات تلقى مقاومة عنيفة من جانب غلاة المحافظين . وعلى الرغم من ذلك ، عم الأخذ بها ، وكان لها أكبر فضل في تيسير الرسم الفرنسي وتضييق مدى الخلاف بينه وبين النطق الحديث . والرسم العربي نفسه قد تناولته يد الإصلاح أكثر من مرة من قبل الإسلام ومن بعده . ومع ذلك لا يزال عدد كبير من المفكرين في عصرنا الحاضر يأخذون عليه كثيراً من وجوه النقص والإبهام (كاضطرابه في رسم الهمزة والألف اللينة ، وإغفاله الرمز

إلى حركات الحروف ، واختلاف صور حروفه باختلاف مواضعها في الكلمة ، واشتماله على عدة مجموعات تتحد حروف كل مجموعة منها في الصورة ولا يتميز بعضها عن بعض إلا بالإهال والإعجام وعدد النقط ب ت ث ، ج ح خ ، د ذ ... الخ) ويدعون إلى إصلاحه من هذه النواحي وغيرها .

ولكن الرسم العربي ليس في حاجة إلى كثير من الإصلاح ، فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطا في القواعد ومطابقة للنطق ^(١) .

هذا ، وعلى الرغم من المساوىء السابق ذكرها ، فإن لجود الرسم على حالته القديمة أو ما يقرب منها بعض فوائد جدرة بالتنويه . فهو يوحد شكل الكتابة في مختلف العصور ، ويسهل تناقل اللغة ، ويمكن الناس في كل عصر من الانتفاع بمؤلفات سلفهم وآثارهم . فلو كان الرسم يتغير تبعاً لتغير أصوات الكلمات لأصبحت كتابة كل جيل غريبة على الأجيال اللاحقة له ، ولاحتاج الناس في كل عصر إلى تعلم طرق النطق والإلمام بحالة اللغة في العصور السابقة لهم حتى يستطيعوا الانتفاع بمخلفات آباءهم . هذا إلى أن جود الرسم على حالته القديمة يفيد الباحث في اللغات أكبر فائدة . فهو يعرض له صورة صحيحة لأصول الكلمات ، ويقفه على ما كانت عليه أصواتها في أقدم عصور

(١) انظر ما كتبناه في عيوب الرسم العربي ووجوه إصلاحه في مجلة الرسالة (عدد ١١٦-٤٤) وفي مجلة الشرق الجديد (أعداد أبريل ومايو ويونية سنة ١٩٤٥) وفي كتابنا « فقه اللغة » (الطبعة الثالثة صفحات ١٧٨-١٩١) .

اللغة : فالرسم للألفاظ أشبه شئ من هذه الناحية بالتحف للآثار .

وقد كان للرسم في اللغات الأوروبية فضل كبير في تيسير النطق بكثير من الأسماء المتداولة المركبة من عدة كلمات . فقد جرت العادة أن يكتب في التعبير عن هذه الأسماء بذكر الحروف الأولى للكلمات التي تتألف منها «T. S. F. = tébégraphe sans fil» , «M. A = Master of arts» وشاع هذا الاستعمال في أسماء المخترعات والشركات والأحزاب والفرق الحربية والنظريات والشهادات العلمية . . . وما إلى ذلك . وقد أنزلت هذه الرموز منزلة الكلمات وأخذ الناس يصرفونها وينسبون إليها ويشتقون منها أفعالا وصفات . وللاقتصار عليها وكثرة استخدامها في الحديث والكتابة تنوسى أصلها عند عامة الناس ، وأصبح كثير منهم يعتقد أنها كلمات كاملة (النازي ، والنافي ، الأتراك ... الخ) .

وللرسم أثر كبير في تحريف النطق بالكلمات التي يقتبسها الكتاب والصحفيون عن اللغات الأجنبية . وذلك أن اختلاف اللغات في الأصوات ، وحروف الهجاء والنطق بها ، وأساليب الرسم ... ، كل ذلك يجعل من المتعذر أن ترسم كلمة أجنبية في صورة تمثل نطقها الصحيح في اللغة التي اقتبست منها . فينشأ من جراء ذلك أن ينطق بها معظم الناس بالشكل الذي يتفق مع رسمها في لغتهم ، ويشيع هذا الأسلوب من النطق ، فتصبح الكلمة غريبة كل الغرابة

أو بعض الغرابة عن الأصل الذى أخذت عنه . وليس هذا مقصوداً على اللغات المختلفة فى حروف هجائها كالعربية واللغات الأوروبية ، بل يصدق كذلك على اللغات المتفقة فى حروف الهجاء كالفرنسية والإنجليزية . فجميع الكلمات الإنجليزية التى انتشرت فى الفرنسية عن طريق رسمها فى الصحف والمؤلفات ينطق بها الفرنسيون فى صورة لا تتفق مع أصلها الإنجليزي (boy-scout; foot-ball; rugby; sterling; standard of living. .) حتى إن كثيراً منها لا يكاد يتبينها الإنجليزي إذا سمعها من فرنسى .

ثانياً — حركة التجديد فى اللغة :

تبدو حركة التجديد فى مظاهر كثيرة من أكبرها أثراً فى التطور اللغوى الأمور الآتية :

١ — تأثر الأدباء والكتاب بأساليب اللغات الأجنبية ، واقتباسهم أو ترجمتهم لمفرداتها ومصطلحاتها ، وانتفاعهم بأفكار أهلها وإنتاجهم الأدبى والعلمى . فلا يخفى ما لهذا كله من أثر بليغ فى نهضة لغة الكتابة وتهذيبها واتساع نطاقها وزيادة ثروتها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر . فأكبر قسط من الفضل فى نهضة اللغة العربية فى عصر بنى العباس يرجع إلى انتفاع الأدباء والعلماء باللغتين الفارسية والإغريقية . فقد أخذوا فى ذلك العصر يترجمون آثارها ، ويعقبون عليها بالشرح والتعليق ،

ويستغلونها في بحوثهم ، ويحاكون أساليهما ، ويقتبسون منهما عدداً كبيراً من المفردات العلمية وغيرها ، ويمزجونها بمفردات لغتهم عن طريق تعريبها تارة وعن طريق ترجمتها تارة أخرى ؛ فاتسع بذلك متن اللغة العربية ، وازدادت مرونة وقدرة على تدوين الآداب والعلوم . ويرجع كذلك أ كبر قسط من الفضل في نهضة اللغة العربية بمصر في العصر الحاضر إلى انتفاع الصحفيين والأدباء والعلماء باللغات الأوروبية الحديثة ، ومحاكاتهم لأساليبها ، وتعريبهم أو ترجمتهم لألفاظها ومصطلحاتها ، واستغلالهم في مؤلفاتهم ومترجماتهم لمنتجات أهلها في شتى ميادين الحركة الفكرية . ولغة الكتابة بفرنسا في العصر الحاضر مدينة بأهم نواحي رقيها إلى تأثرها باللغتين اللاتينية والإغريقية من جهة وباللغات الأوروبية الحديثة من جهة أخرى . فنذ « عصر النهضة » Renaissance لم ينفك أدباء فرنسا وعلماءها دائبين على اقتباس المفردات اللاتينية واليونانية القديمة ، ومحاكاة أساليب هاتين اللغتين ، وترسم قواعدها ومناهجها في البحث^(١) . وقد أخذوا منذ عهد غير بعيد يقتبسون كثيراً من المفردات والأساليب عن اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الإنجليزية والألمانية . ولولا آلاف المفردات التي اقتبسها المحدثون من أدباء ألمانيا وعلمائها من اللغة اللاتينية وما تفرع عنها ومن اللغات الأوروبية الحديثة وبخاصة الفرنسية والإنجليزية ، ما قويت لغة الكتابة بألمانيا أن تصل إلى الشأو الذي هي عليه الآن . ومثل

(١) انتشرت بفرنسا حركة المحاكاة للقواعد والأساليب اللاتينية بفضل كتاب القرن السابع عشر وعلى الأخص بلزاك وديكارت وبوسويه Balzac, Descartes, Boussuet

هذا يقال في معظم لغات الكتابة في العصر الحاضر .

وكثيراً ما تقتبس لغة الكتابة عن اللغات الأخرى مفردات لها نظير في
متنها الأصل ؛ وكثيراً ما تقتبس مفرداً من لغة وتقتبس نظيره في الدلالة عن لغة
أخرى . وإلى هذه الظواهر وما إليها يرجع السبب في كثرة الألفاظ المترادفة
(المشترك المعنوي) في لغات الكتابة . فما يذهب إليه بعضهم من أن الترادف
بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له في اللغات ، ليس صحيحاً إلا فيما يتعلق
ببعض لغات المحادثة التي تتخلل بمأمن من الاحتكاك باللغات الأخرى . أما لغات
الكتابة التي يستحيل في العادة بقاؤها بمعزل عن غيرها ، ولغات المحادثة التي
يتاح لها هذا الاحتكاك ، فلا تخلو من الترادف بالمعنى الصحيح ، للسبب الذي
ذكرناه .

٢ — إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة والمهجورة . فكثيراً
ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن معان لا يجدون في المفردات المستعملة ما يعبر عنها
تعبيراً دقيقاً ، أو لمجرد الرغبة في استخدام كلمات غريبة ، أو في الترفع عن
المفردات التي لا كتبها الألسنة كثيراً . وبكثرة الاستعمال ، تبعث هذه
المفردات خلقاً جديداً ، ويزول ما فيها من غرابة ، وتندمج في التداول المألوف .
ولا يخفى ما لذلك من أثر في نهضة لغة الكتابة واتساع متنها وزيادة قدرتها على
التعبير . وقد سار على هذه الوتيرة بمصر في العصر الحاضر كثير من الأدباء
والعلماء والصحفيين ، فردوا بذلك إلى اللغة العربية جزءاً كبيراً من ثروتها
المفقودة ، وكشفوا عن عدة نواح من كنوزها المدفونة في أجداد المعجمات .

٣ - خلق الأدباء والعلماء لألفاظ جديدة . فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن أمور لا يجدون في مفردات اللغة المستعملة ولا في مفرداتها الدائرة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً . وقد لا يضطرون إلى ذلك إلا مجرد الرغبة في الإبداع ، أو مجانبة الألفاظ المتداولة المألوفة ، أو إبراز المعنى في صورة رائعة وتثبيته في الأذهان وتذليل سبل انتشاره بالإغراب في تسميته . وقد عم استخدام هذه الطريقة في الأمم الأوروبية منذ القرن التاسع عشر ، وكثر التجاء الأدباء والعلماء إليها بنوع خاص في تسمية المستحدث من المخترعات الصناعية والمصطلحات العلمية والأحزاب والمبادئ السياسية والاجتماعية ، وفي التعبير عن بعض معان دقيقة في عالم الأدب والفلسفة ؛ فئات مؤلفاتهم بهذه الكلمات المصنوعة ، وتألف منها معظم المصطلحات في الفلسفة وعلم النفس والعلوم الطبيعية والطب والصيدة ... وما إلى ذلك . وصبغ معظم هذه المصطلحات بصبغة دولية . فأقرته المؤتمرات والهيئات العلمية الممثلة لمختلف الأمم الغربية وعم استخدامها في لغاتها (تلفراف ، تليفون ، سوسيولوجيا ، جيولوجيا ... الخ) . وقد أجاز مجمع فؤاد الأول للغة العربية الالتجاء إلى هذه الطريقة حيث تدعو إلى ذلك ضرورة ، بأن لا يوجد في مفردات اللغة متداولها ومهجورها ما يعبر تعبيراً دقيقاً عن الاصطلاح المراد التعبير عنه .

ولا يخفى ما لهذه الوسيلة من أثر في نهضة لغة الكتابة ، واتساع منها ، ودقة مصطلحاتها ، وزيادة مرونتها وقدرتها على التعبير .

وقد ارتضى الأدباء والعلماء بعض قواعد عامة في وضع هذه الألفاظ .
 ويستعينون عادة في تكوينها بالنحت والاشتقاق الأكبر ومزج كلمتين أو
 أكثر في كلمة واحدة . ويستمدون أصولها من اللغات الحية أو الميتة وخاصة
 اللاتينية واليونانية القديمة . وكثيراً ما يستعان في تكوينها بأكثر من لغة
 واحدة . فمن هذه المفردات ماهو مؤلف من لغتين (مثلاً : « سوسولوجيا »
 أى علم الاجتماع ؛ فصدر الكلمة من أصل لاتيني معناه الجماعة ، وعجزها من
 أصل يوناني معناه المقال أو البحث أو الخطبة) « Sociologie » du latin
 « societas », société, et du grec « logos », discours.
 مؤلف من ثلاث لغات (مثلاً : « بيسيكلت » أى الدراجة ؛ فإن « بي » من
 أصل لاتيني يدل على الثنية ، و « سيكل » من أصل يوناني معناه الدائرة ،
 و « إت » علامة فرنسية للتصغير) Bicyclette : du latin « bi », deux fois,
 et du grec « kuklos », cercle, et du suffixe diminutif français « tte ».
 وقوام هذه المفردات هو التواضع والاصطلاح . ولذلك كثيراً ما تختلف
 معانيها اختلافاً يسيراً أو كبيراً عن معانى الأصول التى استمدت منها .

ولا تبقى هذه الألفاظ جامدة على الحالة التى وضعت عليها ، بل ينالها ما ينال
 غيرها من المفردات ، وتخضع فى تطورها الصوتى والدلالى لنفس القوانين العامة
 التى تخضع لها الألفاظ الأصلية . فبمجرد أن يقذف بها فى التداول اللغوى وتنقلها
 الألسنة ، تقلت من إرادة مخترعيها وتخضع لنواميس الارتقاء العامة المسيطرة على
 ظواهر الصوت والدلالة . فاللفظ الموضوع أشبه شئً بحجر يقذف به القاذف

في جهة معينة بقوة خاصة ؛ فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع في سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها . ولذلك يختلف الآن النطق بالألفاظ الموضوعية ويختلف رسمها باختلاف الأمم واللغات . والأسلوب الصوتي الذي كانت تلفظ به منذ قرن أو قرنين مثلاً غير الأسلوب الصوتي الذي تلفظ به الآن . وقد أخذ كثير منها عند جميع الكتاب أو عند بعضهم ينحرف في دلالاته نفسها عن المعنى الذي وضع له في الأصل .

ثالثاً — المؤلفات اللغوية

وهي البحوث التي ترمى إلى حفظ اللغة وضبطها وسلامتها وتخليدها والوقوف على خواصها وتاريخها وآثارها ... وما إلى ذلك . فتشمل المعجمات ودوائر المعارف وكتب القواعد بمختلف أنواعها (النحو ، الصرف ، الاشتقاق ، الوضع ، البيان ، المعاني ، البديع ... الخ) ، وأدب اللغة وتاريخه ، ودراسة أصوات اللغة ومخارج حروفها ودلالة كلماتها وحياتها والأدوار التي سارت فيها من مختلف نواحيها ... وهلم جرأ .

فلا يخفى ما لهذه الجهود من أثر جليل في حياة لغة الكتابة وحفظها من التحريف وتمهيدتها ونهضتها ونقلها من السلف إلى الخلف .

رابعاً — نشاط حركة التأليف والترجمة

فمن الواضح أنه لاهياة اللغة الكتابة بدون استخدامهما في هذه الشؤون ،

وأنه بمقدار نشاط أهلها في هذه الميادين تتاح لها وسائل الانتشار والرق والنهوض .

(٤) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف

على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به بطريق التقليد والتعلم ، فإن لغة الخلف في كل أمة تختلف عن لغة السلف في كثير من المظاهر . ويرجع بعض أسباب هذا التطور إلى أمور اجتماعية ؛ ولكن طائفة غير يسيرة منها ترجع إلى أمور غير اجتماعية .

١ - أما العوامل الاجتماعية التي تؤثر في هذا التطور فيرجع أهمها إلى أمرين :

(أحدهما) النظم والتقاليد التي يسير عليها المجتمع في تلقين الأطفال اللغة في الأسرة وتعليمهم إياها في المدارس . فلا يخفى ما لهذه النظم من أثر بليغ في تطور اللغة في أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، وفي مبلغ اختلافها في كل جيل عن الجيل السابق له .

وغنى عن البيان أن هذه النظم تترجم عن اتجاهات المجتمع وما يرمى إليه من أهداف في شؤون التربية والتعليم وإعداد النشء للحياة المستقبلية . فهي إذن أمور اجتماعية خالصة .

(وثانيهما) كثرة استخدام الكبار في جيل ما لبعض المفردات في غير

ما وضعت له عن طريق التوسع أو المجاز لدواع اجتماعية خاصة . فقد يكثر استخدام الكلمة لداع من هذه الدواعى في جيل ما في ناحية معينة من نواحي دلالتها أو في معنى مجازي تربطه بمعناها الأصلية بعض العلاقات، فيعلق المعنى الخاص أو المجازي وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلول الكلمة إلى هذا المعنى الجديد . وإليك مثلاً كلمات الصلاة ، والحج ، والثر ، والمدام ، والنجمة ، والمجد ، والأفنى ، والوغى ، والغفران ، ومحل الأدب ... : فقد كانت هذه الكلمات تطلق في الأصل على الدعاء ، والاتجاه ، والخسيس من كل شيء ، وكل ماسكن ودام ، وطلب الغيث ، وامتلاء بطن الدابة بالعلف ، وقلة لبن الناقة ، واختلاط الأصوات ، والستر ، وحيث يلزم الأدب ...؛ ثم كثر استخدامها في عصر ما ، لدواع اجتماعية خاصة ، في معاني فريضة الصلاة ، وقصد البيت الحرام ، والخسيس مما يلبس أو يفرش فحسب ، وانحمر ، وطلب أى شيء ، والعظمة ، ونقص العقل ، والحرب ، والصفح ، ومحل قضاء الحاجة ...؛ فعلقت هذه المعاني المجازية وحدها بأذهان الصغار ، وتحولت إليها مدلولات هذه الكلمات فأصبحت حقيقة فيها . وإليك مثلاً آخر كلمة saoul الفرنسية : فقد كان معناها في الأصل « الشبعان » من الطعام ؛ ثم كثر استخدامها في عصر في النشوان من الخمر عن طريق المجاز والتهكم والتخرج من استخدام الكلمة الصريحة في هذا المعنى وهى كلمة ivre ، فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار في هذا الجيل ، وتحول إليه مدلول هذه الكلمة ، فأصبحت صريحة فيه ،^(١)

(١) لا تقل الآن كلمة saoul عن كلمة ivre في صراحتها في التعبير عن النشوان ، إن لم ترد عنها في ذلك .

وانقرض معناها القديم .

وإلى هذا العامل يرجع أهم الأسباب في تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية في الأصل وفيما يعترى الدولوات في نطاقها من سعة أو ضيق . بل إن طائفة من العلماء ، على رأسها العلامة Herzog ، قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور في الدلالة ^(١) .

فالدعائم التي يقوم عليها التطور اللغوي الناشئ عن هذين الأمرين وما إليهما لا تختلف في شيء عن الدعائم التي يعتمد عليها التطور الناشئ عن العوامل المشار إليها في الفقرات الثلاث السابقة . فكلما التطورين يرجع إلى ظواهر الاجتماع ، وتدعو إليه مقتضيات الحياة الاجتماعية . وكل ما بينهما من فرق أن التطور الناشئ عن هذين الأمرين يحدث في أثناء انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ؛ على حين أن التطور الناشئ عن العوامل المشار إليها في الفقرات الثلاث السابقة يعتور اللغة في مراحل أخرى من مراحل حياتها .

٢ — وأما العوامل غير الاجتماعية التي تؤدي إلى تطور اللغة في أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، فيرجع أهمها كذلك إلى أمرين يؤثر كلاهما في تطور الأصوات خاصة :

Meillet, dans «L'Année Sociologique», T. 9, P.P. 6, 7; (١)
et Herzog, «der Romanischen Philologie».

(أحدهما) التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق في الإنسان (قانون روسلو Rousselot). فمن المقرر أن هذه الأعضاء غير جامدة على حالة واحدة، وأنها في تطور طبيعي مطرد في بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها، وأنها في كل جيل تختلف عنها في الجيل السابق له. فمخارجنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين، إن لم يكن في بنيتها الطبيعية فعلى الأقل في استعداداتها^(١)؛ بل إنها لتختلف عما كانت عليه عند آبائنا المباشرين. غير أن هذا التطور يسير ببطء وتدرج، حتى إن آثاره لاتكاد تحس بين جيلين متتابعين؛ ولكنها تبدو واضحة كل الوضوح بالموازنة بين جيلين من شعب واحد تفصلهما حقبة كبيرة من الزمن. ومهما يكن من شيء، فإن كل تطور يحدث في أعضاء النطق أو في استعدادها، مهما كان مبلغه، يتبعه تطور في أصوات الكلمات؛ فتتحرف هذه الأصوات عن الصورة التي كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملائمة مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق.

ومن ثم لم يكن بد من أن يحدث في أصوات كل لغة انحراف ما في أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف، تبعاً لما يمتاز به أولئك عن هؤلاء من خصائص

(١) يكاد العلماء يجمعون على أن أعضاء النطق في الشعب الواحد والظروف المتشابهة تتطور استعداداتها وتختلف باختلاف الأجيال والعصور. أما تطور بنيتها الطبيعية في الشعب الواحد والظروف المتشابهة فقد اختلف العلماء بصدده: فمن منكر له؛ ومن قائل به. والمذهب الأخير هو الأدنى إلى الصواب.

ناشئة عن التطور الطبيعي في أعضاء النطق ، ولما تقضى به سنن الطبيعة من اختلاف هذه الأعضاء في كل جيل عنها في الجيل السابق له .

وقد كان لكشف هذا القانون أجلّ أثر في نهضة البحوث اللغوية المتعلقة بالتطور الصوتي ، وفي القضاء على كثير من النظريات الفاسدة القديمة (١) .

وقد جرت العادة بنسبة هذا القانون إلى العلامة روسلو Rousselot (٢) ؛ لأنه وقف قسماً كبيراً من جهوده على دراسته ، وتدعيمه بالأدلة القاطعة ،

وتحرى حقائقه بطرق البحث القديمة وبطريقة جديدة لم يكده يسبقه أحد إليها وهي طريقة استخدام الأجهزة في دراسة الأصوات اللغوية ، التي اشتهرت باسم طريقة «الفونيتيك التجريبي» (Phonétique expérimentale) (٣) . ومع ذلك فإن روسلو لم يكن أول من اهتمدى إلى هذا القانون ، بل قد سبقه إلى ذلك

عدد كبير من الباحثين من أشهرهم العلامة هرمان بول Herman Pual (٤) .

وليس من الميسور وضع قواعد عامة مضبوطة لاتجاهات هذا التطور ؛ لأن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً باختلاف اللغات والبيئات والشعوب . فبحسبنا أن نضرب أمثلة من الظواهر الصوتية المترتبة عليه .

(١) انظر بعض هذه النظريات في كتابنا « علم اللغة » الطبعة الثالثة صفحتي ٢٦٢ ، ٣٦٣ .

(٢) انظر كتابه « دراسة التطورات الصوتية في اللغة » Etudes sur les changements phonétiques وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٠ .

(٣) انظر تفاصيل هذه الطريقة بكتابنا علم اللغة ٣٨ — ٤١ الطبعة الثالثة .

(٤) انظر تفصيل ذلك بكتابنا علم اللغة صفحات ٤١ ، ٥٥ — ٥٧ الطبعة الثالثة .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والظاء والقف . فقد أصبحت هذه الأصوات ثقيلة على أعضاء النطق في كثير من البلاد العربية ، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقيناً خاصاً ومجهوداً إرادياً وقيادة مقصودة لحركات المخارج . ولعدم ملائمتها مع الحالة التي انتهت إليها أعضاء النطق في هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها . فالصوت الأول (الجيم) الذي كان ينطق به معطشاً بعض التعطيش في العربية الفصحى قد تحول في معظم المناطق المصرية إلى جاف (جيم غير معطشة) ، وفي معظم المناطق السورية والمغربية إلى جيم معطشة كل التعطيش (z)^(١) . والثاء قد تحولت إلى تاء في معظم المناطق المصرية وفي بلاد أخرى (فيقال . توب ، تلج ، تحين ، تلعب ، لعبان ، تفل ، تتيل ، تلت ، ثلاثة ، تمن ، تمانية ، تور ، اثنين ، نتر ، جثة ، عثة ، عتر ... الخ ، بدلاً من : ثوب ، ثلج ، تحين ، تلعب ، لعبان ، ثفل ، ثقل ، ثلث ، ثلاثة ، ثمن ثمانية ، ثور ، اثنان ، نثر ، جثة ، عثة ، عثر ... الخ)^(٢) . والذال قد تحولت في كثير من المناطق العربية إلى دال في معظم الكلمات (فيقال : داب ، دراع ، ديب ، ده ، دى ، دبل ، دبح ، دبان ، دأن ، أدان ، ودن ، دهب ،

(١) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقاً صحيحاً في غامية العراق وبعض المناطق المصرية ، وخاصة في مديرية الشرقية .

(٢) تحول هذا الصوت في كلمات قليلة إلى سين أو صاد : ثواب ينطق بها أحياناً سواب أو صواب .

دبل ... الخ ، بدلا من : ذاب ، ذراع ، ذئب ، ذا ، ذى ، ذبل ، ذبح ، ذبان ،
 ذقن ، أذان ، أذن ، ذهب ، ذيل ... الخ) ؛ وإلى زاي فى بعض الكلمات
 (فىقال مثلا : زئب ، زهن ، زكى ، زرى ، رزالة ... الخ ، بدلا من : زئب ، زهن ،
 زكى ، بذر ، رذالة ... الخ) . - والطاء قد تحولت إلى ضاد فى معظم الكلمات
 (فىقال : ضلام ، ضفر ، ضل ، ضهر ... الخ ، بدلا من : ظلام ، ظفر ، ظل ،
 ظهر ... الخ) ؛ وإلى زاي مفخمة فى بعض الكلمات (كما ينطق فى عامية المصريين
 بكلمات : ظالم ، ظريف ، أظن : حظ ... الخ)^(١) . والقاف قد تحولت إلى همزة
 فى بعض اللهجات المصرية والسورية (فىقال : أط ، ألت ، أبل ، عأد ، نطأ ... الخ
 بدلا من : قط ، قلت ، قبل ، عقد ، نطق ... الخ) ؛ وإلى جاف (جيم غير
 معطشة) فى معظم اللهجات العامية بمصر وغيرها من البلاد العربية (فىقال :
 جط ، جلت ، جبل ، عجد ، نطج ... الخ)^(٢) .

ومثل هذا حدث فى كثير من اللغات الأوروبية . فمن ذلك ما لوحظ بصدد

(١) لا يزال ينطق بأصوات الثاء والذال والطاء نطقاً صحيحاً فى عامية العراق والمغرب
 وخاصة فى طرابلس وفى القبائل العربية النازحة إلى مصر (الفوايد ، الرماح ، البراعصة ،
 أولاد على ، الضعفاء ، سمالوس ... الخ) .

(٢) لا يزال صوت القاف محتفظاً بنطقه الصحيح فى كثير من الكلمات فى عامية العراق
 وعامية رشيد . وكان مستعملاً منذ عهد غير بعيد فى بعض مناطق بنى سويف ؛ وقد سمعت
 أنا نفسى بعض شيوخ أسرتى (بلدة الحمام مركز بنى سويف) يتكلمون بالقاف ؛ ولا يزال
 العامة فى هذه المناطق يتكلمون بالقاف حينما يروون عبارة منسوبة إلى أجدادهم فى الأقاصيص
 الشعبية وما إليها ؛ وهذا يدل على أن صوت القاف لم ينقرض لديهم إلا منذ أمد قريب .

تطور الراء الفرنسية في منطقة باريس وما إليها . فقد كان ينطق بها قديماً في صورة مرققة ؛ ثم أخذت تنحرف عن مخرجها تبعاً لتطور أعضاء النطق واستعدادها حتى قربت من آخر الحلق ، فتحولت إلى صوت بين الراء والغين ، وأصبح صوتها القديم ثقيلاً على الألسنة . يتطلب لفظه من أهل هذه المناطق مجهوداً إرادياً وقيادة مقصودة لحركات المخارج .

هذا ، ولا يقتصر أثر العامل الذي نحن بصدده على تحريف بعض أصوات الكلمة عن مخرجها الأولى ، بل قد يؤدي إلى اقتراس الكلمة برمتها اقتراساً تاماً من لغة المحادثة . وذلك أن ثقل الكلمة على اللسان ، أو عدم تلاؤم أصواتها مع الحالة التي انتهى إليها تطور أعضاء النطق في جيل ما ، كثيراً ما يعرضها هي نفسها للزوال . وإلى هذا يرجع السبب في اقتراس كثير من الكلمات العربية من لغات التخاطب العامة في العصر الحاضر .

(وثانيتها) الأخطاء السمعية التي تنشأ عن ضعف بعض الأصوات والتي تؤدي إلى سقوط هذه الأصوات في أثناء انتقال اللغة من السلف إلى الخلف (قانون روسلو وميه Rousselot-Meillet) . فقد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج ، فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً ، حتى يصل في عصر ما إلى درجة لا يكاد يبينه فيها السمع . فحينئذ يكون عرضة للسقوط في لغة الخلف . وذلك أن معظم الصغار في هذا العصر لا يكادون يبينونه في نطق الكبار ، فينطقون بالكلمات مجردة منه ، ولا يفتن الآباء لسقوطه في لغة أولادهم للسبب نفسه الذي من أجله لم يفتن الأولاد لوجوده في لغة آبائهم .

ويرجع أكبر قسط من الفضل في توضيح هذا العامل وبيان آثاره إلى الأستاذين روسلو ومييه *Rousselot-Meillet* ؛ ولذلك تنسب إليهما نظريته^(١).

ولا يخفى ما لهذا العامل من أثر بليغ في تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . فإليه يرجع السبب في سقوط كثير من الأصوات الواقعة في أواخر الكلمات في عدد كبير من اللغات الهندية - الأوروبية الحديثة . ومن ثم نرى اختلافاً بينا في هذه الناحية بين رسم الكلمة ونطقها في هذه اللغات . فكثيراً ما ترسم في آخر الكلمة زوائد لا ينطق بها في العصر الحاضر ، وإن كانت تمثل أصوات الكلمة في أدوارها الأولى . ومعظم أصوات اللين المتطرفة في اللغة اللاتينية قد انقرضت في اللغات المنشعبة عنها^(٢) . ففي البروفنسية *Provençale* والفرنسية لم يكذب شئ منها^(٣) ، وفي الأسبانية سقط من هذه الأصوات صوتان *I.E.* .

وإلى هذا العامل (مع عوامل أخرى سيأتى ذكرها في الفقرة السادسة من هذا الفصل) يرجع السبب كذلك فيما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات المد القصيرة (المسماة بالحركات والتي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة)

(1) V. Dauzat : Les Patois, p. 118 ; Meillet : Linguistique Générale, p. 79 ; Delacroix : Le Langage et la Pensée, p. 180 et suiv.

(٢) يستثنى من ذلك الإيطالية ، فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات .

(٣) انقرضت جميعها في الواقع ما عدا صوت *a* في بعض صورته وما عدا بعض حالات شاذة .

والطويلة (الألف والياء والواو) وبعض الأصوات الساكنة الواقعة في أواخر الكلمات . ففي جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والسودان والحجاز والعراق والشام وفلسطين واليمن والمغرب... الخ) قد انقرضت في النطق أصوات المد القصيرة؛ الواقعة في أواخر الكلمات، سواء في ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن في هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر . ولعلّ هذا هو أكبر انقلاب حدث في اللغة العربية . فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردها من علامات إعرابها الدالة على وظائفها في الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب . وقد تضاءلت كذلك أصوات المد الطويلة الواقعة في أواخر الكلمات العربية في عامية المصريين وغيرهم ، حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء في ذلك ما كان منها داخلاً في بنية الكلمة (رمى ، يرمى... الخ) وما كان خارجاً عنها (ضربوا ناموا... الخ) . فيقال مثلاً في عامية المصريين : « رام وعيس ومصطفى أب حسين سافروا يوم الخميس لـجـرج » بدلاً من « رامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا » . وفي معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية قد انقرض كذلك في النطق من أواخر الكلمات التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتان^(١) . فيقال مثلاً في عامية المصريين : « محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يـلـعبُ ؛ الهـوَّ شـديـدٌ ؛ انتـظـرتُ ساعَ كـامـلٌ » بدلاً من « محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ؛ الهواء شديد ؛ انتظرته ساعة كاملة » .

(١) التاء المربوطة حكمها في ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور ؛ بعدما

(٥) العوامل الطبيعية

نعني بهذه العوامل ما يشمل الظواهر الجغرافية والفيزيولوجية والبيولوجية والإتولوجية ... وما إلى ذلك من الأمور التي تتصل بالبيئة الطبيعية أو بوظائف الأعضاء أو بتطور الناحية الجسمية في الإنسان أو باختلاف الشعوب في خواصها الوراثية ... وهلم جرا .

ومع اختلاف أنواع هذه الطائفة بعضها عن بعض ، فإنها تتفق جميعاً في أنها عوامل غير اجتماعية ، أى لاتنبعث عن ظواهر الاجتماع ولا تنشأ عن العقل الجمعى .

والتطور المغوى الناشئ عن هذه الطائفة من العوامل ، تبدو بعض آثاره في مرحلة انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ، ويبدو بعضها الآخر فيما عدا ذلك من العوامل .

وقد عرضنا في الفقرة السابقة لأهم مظاهرها في مرحلة انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ^(١) . وسنقتصر في هذه الفقرة على الكلام على مظاهرها فيما عدا ذلك .

ترجع أهم هذه المظاهر إلى أمرين رئيسيين : أحدها البيئة الجغرافية ؛

(١) انظر صفحات ٥٤ - ٦١ .

وثانيهما اختلاف الشعوب بعضها عن بعض في خواصها الوراثية المتعلقة بأعضاء النطق .

١ — فأما البيئة الجغرافية فإن لها أثراً ذابال في خصائص اللغة وفي كثير من مظاهر التطور اللغوى . وذلك أن ما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق وانسجام يحدث مثله بين لغتها ومظاهرها بيئتها الجغرافية . فجميع خصائص الإقليم الطبيعية تنطبع في لغة سكانه ، وتتجه بها في سبيل التطور وجهة خاصة . ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الحارة والمعتدلة والباردة ، وبين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية ، وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية ؛ ونشأت فروق غير يسيرة بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة ، بل بين لهجات اللغة الواحدة . ومن أجل ذلك أيضاً غزرت في كل لغة المفردات التي تدور حول مظاهرها بيئتها الجغرافية ، ودقت دلالاتها ، وانبثت في شتى فنون القول . ومن أجل ذلك أيضاً كان قسط كبير من مادة الخيال والتشبيه في كل لغة مستمدّاً من مظاهر البيئة وما اختصت به طبيعة البلاد . ومن أجل ذلك أيضاً تمثل في أسلوب اللغة وفنونها الأدبية ما تختص به بيئتها الطبيعية من تلبذ أو صفاء ، وقبح أو جمال ، وصخب أو هدوء ، وتنوع أو اطراد ، وتقلب أو ثبات ، وما ينبعث عنها من رخاوة أو قوة ، وخمول أو نشاط ، وخشونة أو نعيم . ولهذا كله يستطيع الباحث معرفة البيئة الأولى التي نشأت فيها لغة ما على ضوء مفردات هذه

اللغة ، وغزارتها في بعض النواحي وجديها في نواح أخرى ، وما تجنح إليه أساليبها ومادتها في الخيال والتشبيه وخواص آدابها ... وما إلى ذلك .

وغنى عن البيان أن البيئة الجغرافية لاتستقل بإحداث أى أثر من الآثار السابقة ، بل يتضافر معها على ذلك عوامل أخرى معظمها اجتماعي ؛ وأن التطور اللغوي ، حيث يتأثر بالبيئة الجغرافية ، لاتتأثر بها في صورة مباشرة ، وإنما ينجم عن ظواهر اجتماعية أو نفسية كانت لهذه البيئة دخل مافي نشأتها أو فيما تسلكه من مناهج .

٢ — وأما اختلاف الشعوب بعضها عن بعض في خواصها الوراثية المتعلقة بأعضاء النطق ، فإن له كذلك أثراً لا يستهان به في خواص اللغة وفي كثير من مظاهر التطور اللغوي ، وخاصة مايتعلق منها بناحية الأصوات . وذلك أن أعضاء النطق تختلف في بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعاً لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتي تنتقل عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف . حقاً إن أعضاء النطق تظل مرنة كل المرونة طوال المرحلة الأولى من مراحل الطفولة . فمن المشاهد أن الطفل في هذه المرحلة لايستعصى عليه اكتساب أى لغة عن طريق التقليد ، مهما كانت هذه اللغة بعيدة عن لغة أبويه ، بل في استطاعته أن يكتسب بهذه الوسيلة عدة لغات أجنبية إذا أتيحت له فرص الاختلاط بالتكلمين بها ؛ ويصل في إجادتها جميعاً إلى درجة لايستطيع معها أكبر خبير في اللغات أن يميزه من أهلها . ولكن

ليس من شك في أنه كلما تقدمت به السن ظهرت عنده الاستعدادات الصوتية الكامنة الخاصة بأمته ، ورسخت لديه عاداتها الكلامية ، فتفقد أعضاء نطقه مرونتها شيئاً فشيئاً ، وتتشكل بالشكل الذي فطرت عليه في شعبه ، وتسلك في تطورها منهجاً خاصاً يختلف عن المنهج الذي تسلكه أعضاء النطق في الشعوب الأخرى .

ولا يخفى ما يترتب على اختلاف الشعوب بهذا الصدد من آثار خطيرة في التطور الصوتي في مختلف اللغات .

فإلى هذا يرجع بعض السبب في اختلاف اللغة الواحدة في تطورها الصوتي باختلاف الشعوب الناطقة بها . وذلك أنها تسلك في تطورها الصوتي عند كل شعب منها مسلكاً يتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه في طبيعتها واستعدادها ومنهج ارتقاؤها . فاللاتينية مثلاً قد سلكت في تطورها الصوتي عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها مسلكاً يختلف عن مسلكها في الشعوب الأخرى ؛ فلم تلبث أن انشعبت من جراء ذلك إلى عدة لغات (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا ... الخ) . واللغة العربية قد اتجهت كذلك في تطورها الصوتي عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيره ؛ فلم تلبث أن تولد عنها من جراء ذلك عدة لهجات (عامية العراق ، عامية الشام ، عامية نجد والحجاز ، عامية اليمن ، عامية مصر ، عامية

المغرب ... الخ)؛ حقاً إن كثيراً من مظاهر هذا الاختلاف يرجع إلى عوامل اجتماعية أو نفسية أو إلى آثار البيئة الجغرافية^(١)؛ ولكن ليس من شك في أن بعض هذه المظاهر يرجع إلى العامل الشعبي الذي نحن بصدد الكلام عنه. وعلى هذا العامل يقع كذلك قسط من التبعة فيما يصيب اللغة من تحريف في أصواتها حينما تنتقل من شعب إلى شعب آخر^(٢)؛ وذلك أنها تتشكل عند الشعب المنتقلة إليه في الصورة التي تتفق مع مافطرت عليه أعضاء نطقه وتكونها واستعدادها، فتبعد بذلك عن أصولها الأولى، ويزداد بعدها هذا كلما اتسعت مسافة الخلف بين أصول الشعبين. فما أصاب لغة الصقالبة من تحريف في السنة البلغاريين يفوق كثيراً ما أصابها عند غيرهم؛ وذلك لأن الأصل الفيني *Finois* الذي ينحدر منه البلغاريون لا تربطه صلة قريبة بالأصل السلافي الذي ينتمي إليه الصقالبة. وما أصاب الأصوات اللاتينية من تحريف في اللغة الفرنسية يفوق كثيراً ما أصابها في اللغة الإيطالية؛ وذلك لأن الإيطاليين أقرب رحماً إلى قدماء الرومان من الفرنسيين، ففهم يغلب الدم اللاتيني، بينما يغلب في الفرنسيين الدم السلتي والجرماني. ولهجات القسم الجنوبي من فرنسا كالجسكونية والپروفنسية ... الخ *Gascon, Provençale .. etc* أقرب إلى أصولها اللاتينية

(١) انظر صفحات ٩ - ٣٠، ٦٣، ٦٤.

(٢) نقول: « قسط من التبعة » لا كل التبعة؛ لأن لهذه الظاهرة أسباباً أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسباباً اجتماعية ونفسية وجغرافية ... الخ) سنعرض لها عند كلامنا على صراع اللغات في الفصل الثاني.

من لهجات القسم الشمالى ؛ وذلك أن الدم اللاتينى فى سكان الجنوب أغزر منه فى سكان الشمال . ولهجات الجنوب نفسها تختلف فى مبلغ قربها إلى اللغة اللاتينية تبعاً لاختلاف الناطقين بها فى مبلغ قربهم إلى الأصل اللاتينى . ولذلك كانت البروفنسية Provençal أقرب إلى اللاتينية من الجسكونية Gascon ؛ لأن البروفنسيين أدنى إلى اللاتين من الجسكونيين . - ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (البراعصة ، الفوايد ، الرماح ، الجوازى ، أولاد على ، سمالوس ... الخ) أدنى فى ناحيتها الصوتية إلى العربية الفصحى من لهجات المصريين أنفسهم ؛ وذلك لأنهم أقرب رحماً إلى العرب من المصريين .

وعلى ضوء هذا العامل يمكن كذلك قياس مسافة الخلف بين « اللهجات المحلية » (وهى اللهجات التى يتكلم بها فى منطقة لغوية واحدة كلهجات البلاد المصرية) والوقوف على بعض الأسباب التى تؤدى إلى بعدها بعضها عن بعض^(١) . فالمشاهد أن مبلغ اختلاف هذه اللهجات بعضها عن بعض فى أصواتها يتبع إلى حد كبير مبلغ اختلاف الناطقين بها بعضهم عن بعض فى أصولهم الشعبية . فكلما كان هؤلاء متجانسين فى أصولهم ضاقت مسافة الخلف بين لهجاتهم فى ناحيتها الصوتية ؛ وكلما تعددت الأصول الشعبية التى ينتمون إليها اتسعت هذه المسافة . فلهجات المصريين لا تختلف كثيراً بعضها عن بعض فى

(١) نقول « بعض الأسباب » لأن لهذه الظاهرة أسباباً أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسباباً اجتماعية وجغرافية ... الخ) ، سنعرض لها عند كلامنا على تفرع اللغة فى الفصل الثالث .

هذه الناحية ؛ وذلك لتجانسهم في الأصول التي انحدروا منها . ولهجات المنطقة الشمالية بفرنسا (منطقة باريس وما إليها)^(١) تختلف كثيراً عن لهجات المنطقة الجنوبية منها (طولون ، نيس ... الخ Toulon, Nice) ، ولكن كلتا المنطقتين تحوى مجموعة متشابهة من اللهجات ؛ وذلك لأن سكان المنطقة الشمالية يختلفون في أصولهم الشعبية عن سكان المنطقة الجنوبية ، ولكن كلتا المنطقتين تضم من السكان مجموعة متجانسة في هذه الأصول . - ولهجات المناطق الوسطى بفرنسا تختلف بعضها عن بعض اختلافاً غير يسير ؛ وذلك لتعدد الأصول الشعبية التي ينتمى إليها سكان هذه المناطق^(٢) .

(٦) العوامل اللغوية

تتفق العوامل التي تكلمنا عنها في الفقرات السابقة جميعاً في أنها أمور خارجة عن اللغة التي تتأثر بها . أما العوامل التي سنتكلم عنها في هذه الفقرة فهي أمور ذاتية في اللغة نفسها . وذلك أن بنية اللغة ، ومنتها ، وأصواتها ،

(١) انقرض الآن معظم هذه اللهجات وحلت محلها الفرنسية الحديثة .

(٢) V. Dauzat; Vie du Langage p. 47

هذا ، ومن الخطأ المبالغة في أثر هذا العامل كما حاول ذلك بعض الباحثين . ولأدل على أن أثره ليس بالدرجة التي تصورها هؤلاء من أن الطفل في أية أمة يستطيع بسهولة أن يجيد لغة أمة أخرى عن طريق التقليد إذا أحيط في دور طفولته بأفراد يتكلمون هذه اللغة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في صفحتي ٦٤ ، ٦٥ .

وعناصر كلماتها ، وقواعدها ... كل أولئك قد ينطوى على أمور ذاتية تعمل
هى نفسها فى صورة آلية على التطور اللغوى وعلى توجيهه وجهة خاصة .
وتنقسم هذه العوامل من حيث الناحية اللغوية التى تنصب عليها أثرها إلى
قسمين : عوامل تؤثر فى تطور الأصوات ؛ وعوامل تؤثر فى تطور الدلالة .

العوامل اللغوية المؤثرة فى تطور الأصوات :

فأما العوامل اللغوية التى تؤثر فى تطور الأصوات فيرجع أهمها إلى ثلاثة
أمور ؛ أحدها تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض ؛ وثانيها موقع الصوت
فى الكلمة ؛ وثالثها تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض . وسنتكلم فيما
يلى على كل واحد منها على حدة .

أولا - تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض

يحدث بين الأصوات المتجاورة والمتقاربة فى الكلمة من ظواهر التفاعل
أنواع كثيرة يؤدى كل نوع منها إلى نتائج ذات بال فى التطور الصوتى . ومن
أهم ماسجله الباحثون بهذا الصدد الأمور الآتية :

١ - التفاعل بين الأصوات الساكنة (ونعنى بها ما يقابل أصوات اللين).

يحدث أحيانا بين الصوتين المتجاورين أو المتقاربين فى الكلمة مثل
ما يحدث بين المواد المحملة بالكهرباء . فتجاور مادتين من هذه المواد يحدث بينهما
تجاذبا إذا كانتا مختلفتين فى نوع كهربائيهما بأن كانت إحداها موجبة والأخرى

سالبة ، وتنافرا إذا كانتا متحدتين فيه ، بأن كانت كلتاها موجبة أو سالبة .
وكذلك يفعل أحيانا التجاور أو التقارب بين الصوتين .

(١) فإذا تجاوز صوتان مختلفان في مخارجهما أو تقاربا انجذب أحيانا كل منهما نحو الآخر ، فينتهى بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الأربع الآتية :

فتارة يلتصق أحدهما بالآخر ، فتنقل الأصوات التي كانت تفصل بينهما إلى مابعدهما (ظاهرة النقل المكاني Metathèse)^(١) ؛ كما حدث لحرفي b.r في كلمة berbis إذ تحولت إلى brebis ، وفي كلمة abeurver إذ تحولت إلى abreuvrer

وتارة يتحول أحدهما إلى صوت من نوع الصوت الآخر (ظاهرة التشاكل assimilation)^(٢) . فأحيانا يتحول الأول إلى نوع الصوت الثاني كما حدث في cercher إذ تحولت إلى chercher ؛ وكما حدث في اللام الشمسية^(٣) في اللغة العربية إذ تحولت في النطق إلى صوت الحرف الذي يليها

(١) ليس « النقل المكاني Nétathèse مقصوراً على الحالة التي نحن بصدد الكلام عنها ؛ بل يطلق اصطلاحاً على كل حالة ينتقل فيها صوت أو أكثر من موضعه في الكلمة إلى موضع آخر كما سيأتى بيان ذلك في ص ٨٢ .

(٢) استخدمنا كلمة assimilation في معناها الواسع الذي يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ؛ لأنها لا تطلق في معناها الاصطلاحى الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٣) وهي لام التعريف المتبوعة بأحد الحروف الآتية : ت ث د ذ ر ز س ش ض ط ظ ن

(التقوى ، الثوب ، الدار ، الذئب ، الرحمة ، الزهر ، السماء ، الشمس ، الصوت ، الضرر ، الطول ، الظلم ، الناب) ؛ وكما حدث في الكلمة العربية « شمس » إذ تحولت في بعض اللهجات العامية إلى «سمس» . وأحيانا يتحول الثاني إلى نوع الصوت الأول كما حدث في *gamba, render* إذ تحول إلى *gamma, renner*^(١) ؛ وكما حدث في الكلمة العربية « شمس » إذ تحولت في بعض لهجات الصعيد إلى « شمش » .

وتارة يمتزجان معا ، فيتكون من امتزاجهما صوت ثالث به صفات من كليهما ؛ كما حدث في جميع الكلمات التي تجاور فيها صوتا *l, y* ، إذ تحول هذان الصوتان في الفرنسية إلى صوت واحد يجمع بين صفتيهما وهو صوت *l mouillé* ، وأحيانا يتلاشى أحدهما في الآخر : فيبقى الثاني وحده ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *accaptar* إذ تحولت في الفرنسية إلى *acheter* ؛ أو يبقى الأول وحده ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *cliave* إذ تحولت في الإيطالية إلى *chiave* (ينطق بها *Kyave*)^(٢) .

(ب) وإذا تجاوز صوتان متحدان أو تقاربا فإنهما يتنافران أحيانا ، فينتهي بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الثلاث الآتية :

(١) تحول الصوت الأول إلى نوع الصوت الثاني هو الغالب في هذه الحالة

V. Dauzat; La vie du Langage p. p. 57, 79.

(٢) انقراض الأول وبقاء الثاني هو الغالب في هذه الحالة

فتارة يتحول صوت أحدهما إلى صوت مغاير للآخر (ظاهرة التباين dissimilation)^(١) . ويقع هذا على ضربين : فأحيانا يتحول أولهما كما حدث في *orphan i nus, peregrinum* إذ تحولاً في الفرنسية إلى *orphelin, pelerin* وأحيانا يتحول ثانيهما ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *cr ib rum* إذ تحولت في الفرنسية إلى *crible* ، وكما حدث لصوتى اللام المشددة في اللاتينية إذ تحول صوتها الثانى إلى ياء في معظم الكلمات الإسبانية (*castella* تحولت إلى *castilla* وينطق بها *castilya*)^(٢) .

وتارة يسقط أحدهما في النطق : كما حدث في معظم الأصوات المشددة في اللاتينية ، إذ تحولت في النطق الفرنسى والبروفنسى *Provençal* والإسباني إلى أصوات مخففة^(٣) ؛ وكما حدث في معظم الأصوات المشددة في العربية إذ تحولت في لهجات كثير من بلاد الشرقية إلى أصوات مخففة (فيقال مثلا : « كَلَمَى ، أُمُّهَا ، عَمُّهَا ، من كلِّ بدَّ ») .

(١) استخدمنا كلمة *dissimilation* في معناها الواسع الذى يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ؛ لأنها لا تطلق في معناها الاصطلاحي الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٢) تحول الأول إلى صوت مغاير للثانى هو الغالب في هذه الحالة *V Dauzat, op cit. , 75, 79*

(٣) وهذا فيما عدا اللام المشددة *V. Dauzat op. cit 79* . ونقول « في النطق الفرنسى ... » لأن معظمها لا يزال محتفظا بشكله القديم في الرسم .

وتارة يتساقطان معا ويحل محلهما صوت واحد غريب عنهما . كما حدث في صوتي اللام المشددة في اللاتينية ، إذ تحولاً في الجسكونية Gascon إلى تاء t في حالة وقوعهما في آخر الكلمة وإلى راء r في حالة وقوعهما بين حرفي لين (فال كلمتان اللاتينيتان bellum, bella تحولاً في الجسكونية إلى bèt, bera)^(١).

٢ — التفاعل بين أصوات اللين .

وتجاوز صوتي لين أو تقاربهما في الكلمة يجعلهما كذلك عرضة للتغير والانحراف .

فتارة يلتصقان بعد تباعدهما ، فتسقط الأصوات التي تفصلهما ، ويتكون منهما صوت لين مركب diphtongue ، كما حدث في الكلمة اللاتينية reg i na إذ تحولت في الفرنسية القديمة إلى reïne^(٢) .

وتارة يتباعدان بعد التصاقهما ، فيقحم بينهما صوت ساكن (أى غير لين) لتسهيل النطق بهما ، كما حدث في الكلمة الفرنسية القديمة pooir إذ تحولت في الفرنسية الحديثة إلى pouvoir .

وتارة يتحول أحدهما إلى صوت لين آخر إذا كانا متحدين ، كما حدث في الكلمة اللاتينية vic i nus إذ تحولت في لغة التخاطب عند الرومان إلى vec i nus

V. Dauzat op. cit. 79. (١)

(٢) تحولت هذه في الفرنسية الحديثة إلى reine التي ينطق بها rène خضوعاً

لقانون « التناوب بين أصوات اللين » الذي سنتكلم عنه في صفحة ٨٣ وتوابعها .

وتارة يخرج أحدها عن فصيلته خروجاً تاماً ، فيتحول إلى صوت ساكن^(١) (ونعني به ما يقابل أصوات اللين) ، كما حدث في الكلمة اللاتينية *platte* إذ تحولت *plattsa*^(٢) ، وكما حدث في اللهجات العامية لبعض المقاطعات الفرنسية (اوفرني وفوريز ودوفيني *Auvergne, Forez, Dauphiné*) إذ تحولت فيها الكلمات التي من قبيل *fialo. tialo* إلى *fsalo, tsala* .

ثانياً — موقع الصوت في الكلمة

وموقع الصوت في آخر الكلمة أو في وسطها أو في أولها يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

١ — وأكثر ما يكون ذلك في الأصوات الواقعة في أواخر الكلمات سواء أكانت أصوات لين أم أصواتا ساكنة (ونعني بالساكنة ما عدا أصوات اللين) .

(١) أما أصوات اللين فقد لوحظ أن وقوعها في آخر الكلمة يجعلها في الغالب عرضة للسقوط ، ويؤدي أحيانا إلى تحولها إلى أصوات أخرى .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات اللين القصيرة (المسماة بالحركات وهي الفتحة والكسرة والضمة) التي تلحق أواخر الكلمات . ففي

(١) يتحول إلى ذلك في الغالب الصوت الأول منهما كما يظهر من الأمثلة التي سندكرها .

(٢) تحولت هذه في الفرنسية إلى *place* .

جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والعراق والشام وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب ... الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعاً، سواء في ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء. فينطق الآن في هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلاً: «رجعَ عمرُ» للمدرسة بعد ماخفَ من عياء» بدلاً من «رجعَ عمرُ إلى المدرسة بعد ماخفَ من إعيائه»). ولعل هذا هو أكبر انقلاب حدث في اللغة العربية؛ فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها من أطرافها، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها في الجملة، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب.

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد أصوات اللين الطويلة (الألف والياء والواو) الواقعة في آخر الكلمات. فقد تضاءلت هذه الأصوات في عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض، سواء في ذلك ما كان منها داخلاً في بنية الكلمة، (رمى، يرى ... الخ) وما كان خارجاً عنها (ضربوا، ناموا ... الخ). فيقال مثلاً في عامية المصريين: «رام وعيس ومصطف أب حسين سافروا يوم الخميس لجرَج» بدلاً من «رام وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا».

وما حدث في اللغة العربية حدث مثله في كثير من اللغات الأخرى. فمعظم أصوات اللين المتطرفة في اللغة اللاتينية قد انقرضت في اللغات المنشعبة عنها^(١).

(١) يستثنى من ذلك الإيطالية فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات.

ففي الإسبانية سقط من هذه الأصوات صوتان وهما ^(١) i, e ، وفي البروفنسية provençal والفرنسية القديمة لم يكذب يبق شئ منها ^(٢) . وبعض هذه الأصوات قد تحول إلى أصوات لين أخرى ؛ كما حدث لصوت a إذ تحول في الفرنسية القديمة إلى «e» ^(٣) canta, chant e; lenta, lent e; fava, fèv e .

(ب) ووقوع الصوت الساكن (ونعني به ما يقابل صوت اللين) في آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتين ^(٤) . فقد انقرضت هذه الأصوات في معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك من الموازنة بين العبارات العربية المدونة في السطر الأول ونظائرها في عامية المصريين المدونة في السطر الثاني :

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ؛ الهواء شديد ؛ انتظرتُه ساعة كاملة .
محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبُ ؛ الهو شديد ، انتظرتُ ساعَ كاملَ .
ومن هذا القبيل كذلك حذف آخر الكلمة التي يوقف عليها في عامية

(١) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة بقي فيها أحد هذين الصوتين .

(٢) انقرضت جميعها في الواقع ما عدا صوت a الذي سيأتي الكلام عنه وما عدا بعض حالات شاذة .

(٣) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة . وقد حدث هذا التطور في المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر . انظر 142 Dauzat, op. cit .

(٤) الناء المربوطة حكمها في ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

كثير من المناطق المصرية ، كـ بعض مناطق بنى سويف والشرقية ورشيد وغيرها
فيقال مثلاً : « إنت ياول » بدلاً من « أنت يا ولد » « فين أخوك محمو » بدلاً
من « أين أخوك محمود » إـديلُ خَمْساً رُو » بدلاً من « أدله خمسة قروش »^(١) .
وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغات
الأخرى . فعظم الأصوات الساكنة المختمة بها الكلمات اللاتينية قد انقرضت
في النطق الفرنسى أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعف منها أو إلى
أصوات لين .

أما الانقراض فلم يكـد ينـجو منه إلا القليل من أنواع هذه الأصوات
(plumbum تحولت في الفرنسية إلى plomb التى ينطق بها plon بدون صوت
الباء الأخير ؛ campus تحولت في الفرنسية إلى champ التى ينطق بها chan
بدون صوت p الأخير ...^(٢) الخ) . ومن ذلك أيضاً حذف علامة الجمع s في
النطق الفرنسى ، وبذلك أصبح المفرد وجمعه المختتم بصوت s سيين في النطق
ولا يختلفان إلا في الرسم .

وأما تحولها إلى أصوات ساكنة ضعيفة فقد حدث في كثير من الكلمات

(١) سار على هذا الأسلوب كذلك بعض اللغات العربية الفصيحة ، كالغة طيء .
وقد جرت عادة المؤلفين من العرب بتسميته قطعة طيء (أى قطع اللفظ قبل تمامه) .
فكان يقال مثلاً في لغتهم « يا أبا الحك » بدلاً من يا أبا الحكم . ولم يكن هذا مقصوراً
لديهم على المنادى بل كان عاماً في جميع الكلمات .

(٢) V. Dauzat op. cit. 75,76

المنتهية بأصوات مدوية *sonores* مثل أصوات *v.d.b.* إذ تحولت في الفرنسية القديمة هذه الأصوات القوية إلى أصوات ضعيفة صامتة *sourds* مثل أصوات *f. t. p.* (*navem, grandem*) تحولتا في الفرنسية القديمة إلى *(nef, grant)*. وقد جرت عادة العلماء أن يطلقوا على هذه الظاهرة اسم «توهين الصوت الساكن الأخير» *assourdissement des consonnes* (١) *sonores finales*

وأما تحولها إلى أصوات لين فقد حدث على الأخص في حرف اللام المتطرفة إلى *(vocalisation de l final)* (٢).

هذا، وقد أحدث سقوط الأصوات اللينة والساكنة الواقعة في أواخر الألفاظ انقلاباً كبيراً في عالم اللغات. فقد كان من آثاره انقراض «طريقة الإعراب» في كثير من اللغات التي كانت تسير عليها كالعربية واللاتينية وما إليهما (٣).

(١) حدث مثل ذلك أيضاً في الألمانية الحديثة إذ تحول فيها مثلاً *grob, tod* إلى *Grop, tot*. انظر *Dauzat op. cit. 75*.

(٢) حدث ذلك في الفرنسية وفي البروفنسية حوالي القرن الثاني عشر الميلادي *V. Dauza op. cit. 75*

(٣) «طريقة الإعراب» هي الطريقة التي تعتمد في بيان نوع الكلمة ووظيفتها في الجملة على ما يلحق آخرها من أصوات. ولا يزال لهذه الطريقة آثار كثيرة في بعض لغات التخاطب كالألمانية وما إليها.

٢ — وقوع الصوت في وسط الكلمة يعرضه كذلك لكثير من صنوف التطور والانحراف .

فمن ذلك ما حدث في اللغة العربية بصدد الهمزة الساكنة الواقعة في وسط الثلاثي . فقد تحولت إلى ألف لينة في عامية المصريين وغيرهم (فيقال : راس ، فاس ، فال ضاني ... ، بدلا من : رأس ، فأس ، فأل ، ضأن ... الخ) .

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الياء والواو الساكنتين في وسط الكلمة في مثل عين ويوم . فقد تحولتا في بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من أصوات اللين ؛ فأولهما تحول إلى صوت يشبه صوت e في اللغة الفرنسية (عين ، خيل ، بين ، زينب ... الخ) ؛ وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت o الفرنسية (يوم ، نوم ، فوز ، لوم ... الخ) .

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع في وسط كلمة ثلاثية في كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية ، وبعض عاميات الصعيد ، ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر ، ولهجة العراق ... الخ) ؛ فيقال مثلا : رَسِم ، رَسِم ، مَصِر ، جُرُن ، بَدِر ، فَحِل ، فِجَل ... الخ ، بدلا من اسْم ، رَسَم ، مَصَر ، جَرْن ، فَحَل فِجَل الخ^(١) .

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هذا القبيل في اللغات الهندية-الأوروبية .

(١) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية .

فمن ذلك ماحدث بصدد صوت اللين القوى tonique الواقع قبيل آخر الكلمة وخاصة إذا كان حراً *voyelle libre* ، أى متبوعاً بصوت ساكن واحد أو بصوتين من إحدى المجموعات الآتية : *br, cr, dr, tr* . فقد تحول هذا الصوت في معظم حالاته في اللغات اللاتينية والجرمانية واليونانية القديمة إلى صوت لين مركب (*diphtongue*) . وأشد أصوات اللين اتجاهاً إلى هذا التحول صوتان هما *è, ô* ؛ وأقل منهما ميلاً إلى هذا التحول صوتا *u, i* ، فإنه لم يكد يبدو فيهما هذا الميل إلا في اللغات الجرمانية (*scinan* تحولت في الألمانية *scheinen* وينطق بها *chäinen* ، وفي الإنجليزية إلى *shine* وينطق بها *chaïne*)^(١) .

ومن ذلك ماحدث للصوت الساكن الواقع بين صوتي لين . فوقعه هذا قد أدى به أحياناً إلى السقوط وأحياناً إلى الانحراف عن مخرجه الأصلي والتحول إلى صوت آخر . فصوت الباء *b* قد تحول في لغة التخاطب اللاتينية إلى صوت *v* (*faba* تحولت إلى *fava*)^(٢) وصوت السين *s* قد تحول في اللاتينية إلى راء *r* (*arboris* تحول إلى *abroris*) . وصوت الدال *d* في الكلمات اللاتينية قد تحول إلى ذال *z* في البروفنسية^(٣) وسقط في الفرنسية والإسبانية:

(١) ظهر هذا الميل كذلك في بعض اللهجات العامية الإيطالية V. Dauzat op. cit. 70

(٢) لم يشذ من ذلك إلا عدد يسير من الكلمات .

(٣) كان ينطق بصوت *z* في البروفنسية كما ينطق بالذال العربية (*th* في الإنجليزية) .

latin : videre; provençal : vezer; français : veoir, voir; espagnol : veer, ver
 وصورتا اللام والنون n, l الواقعان بين صوتي لين قد سقطا في اللغة
 البرتغالية في العصور الوسطى (p o p u l u s تحول إلى povo rationem;
 تحول إلى razoe). والأصوات الصامتة (consonnes sourdes : p, t, k... etc)
 الواقعة بين صوتي لين قد تحولت في اللاتينية الحديثة حوالى القرن
 السادس إلى أصوات مدوية consonnes sonores قريبة منها (b, d, g...etc).
 وإلى هذا الحد وقف تطور هذا النوع في الإسبانية والپروفرنسية. أما في الفرنسية
 الحديثة فقد حدث تحول آخر إذ انقلب صوت الباء b إلى v وسقط صوتا الدال
 والجيم g, d، كما يظهر ذلك من الأمثلة الآتية^(١) :

latin : ripa, amata, securus.

esp et prov. : ribera (riba), amada, segur (o)

français ; rive, aimée; sûr.

٣ — ووقوع الصوت في أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف .
 فمن ذلك ماحدث في بعض المفردات العربية المفتحة بالهمزة ، إذ تحولت همزتها
 في بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو (« أذن » تحولت في عامية المصريين
 إلى « ودن » ، و « أين » تحولت إلى « فين » ، أو إلى « وين » في عامية

(١) انظر في هذا الموضوع : Dauzat, op. cit. 74,75

القبائل العربية النازحة إلى مصر وفي عامية العراق والحجاز ؛ و « أدّى » تحولت في بعض المواضع في عامية المصريين إلى « ودّى » فيقال مثلاً « ودّاه المدرسة » بمعنى « أدى به إلى المدرسة » أى أوصله إليها ^(١) .

٤ — وقد تتبادل الأصوات مواقعها في الكلمة ويحل بعضها محل بعض ، فيتقدم المتأخر منها ويتأخر السابق . وتسمى هذه الظاهرة « بالنقل المكانى » (Metathèse) كما حدث في *abeuvrer, barbis* إذ تحولاً إلى *abreuver, brebis* ؛ وكما حدث في الكلمة العربية « أرانب » إذ تحولت في عامية القاهرة وغيرها إلى « أنارب » .

ثالثاً — تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض

وفى عدا الحالات السابقة قد لوحظ أن الأصوات المتحدة النوع تتناوب ويحل بعضها محل بعض . وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة بهذا الصدد بعضها خاص بأصوات اللين وبعضها يتعلق بالأصوات الساكنة .

(١) ليس هذا مقصوداً على اللغات العامية ، بل يوجد له نظير في بعض اللهجات العربية الفصحى . ففي لغة لأهل اليمن تبدل الهمزة واواً في مثل « آتيته » ، فيقال مثلاً واتيته على الأمر مواتاة ، وهى المشهورة على ألسنة الناس .

١ — أما تناوب أصوات اللين فلم تكد تخلو منه لغة من اللغات الإنسانية.
 ففي اللغة العربية حدث تناوب واسع النطاق بين أصوات اللين القصيرة
 (التي يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة) . ويمثل هذا التناوب انقلاباً من
 أهم الانقلابات التي اعتورت هذه اللغة . فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان
 الكلمات وانقلبت أشكالها رأساً على عقب ، حتى لانكاد نجد في اللهجات
 العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربي القديم . فالفتحة قد استبدل بها
 الضمة أحياناً والكسرة في كثير من الأحوال (فبدلاً من : يَعُوم ، يَسْجَد ،
 يَسْمَع ، عَثَر ، خَلَص ، سَكَت ، كَبِير ، أَلْكَاب ... الخ ؛ يقال في عامية
 المصريين : يُعُوم ، يُسْجَد ، يَسْمَع ، عَثِرَ أو عَثُرَ ، خَلِصَ أو خُلِصَ ، سَكِتَ
 أو سُكِتَ ، كَبِير ، إَلْكَاب ... الخ) . والكسرة قد استبدل بها الضمة
 أحياناً والفتحة في كثير من الأحوال (فبدلاً من : يَلِطِم ، يَضْرِب ، يَسْرِق ،
 عِنْد ... الخ ؛ يقال في عامية المصريين : يَلْطِم ، يَضْرَب ، يَسْرَأ ، عِنْد ... الخ) .
 والضمة قد استبدل بها الفتحة أحياناً والكسرة في معظم الحالات (فبدلاً من :
 مُحَمَّد ، ثُعْبَان ، أَثْنَى ، عُمَّة ، يَقْتُل ، يَدُم ، ظَفُر ... الخ ؛ يقال في عامية
 المصريين ، مُحَمَّد ، ثَعْبَان ، إِنْتَايَة ، عِتَة ، يَنْتِل ، يَزِم ، ضِفْر ... الخ) .

وحدث كذلك تناسخ في أصوات اللين الطويلة نفسها ، وخاصة في الألف
 اللينة إذ أميلت في لغات بعض القبائل العربية القديمة ، وتعال الآن في لهجات
 بعض القبائل العربية النازحة إلى مصر وفي بعض اللهجات في بلاد الشرقية
 وغيرها .

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الأوروبية . فمن ذلك تحول أصوات اللين المركبة *diphthongue* إلى أصوات لين بسيطة في كثير من هذه اللغات . فاللغة الفرنسية مثلاً قد تحول في نطقها معظم أصوات اللين المركبة إلى أصوات لين بسيطة ؛ وإن كانت لا تزال ترسم حسب حالتها القديمة (*ai, ei, au, eau, eu...etc.*) ؛ وعلى هذه الظاهرة يقع قسط كبير من التبعة في صعوبة الرسم الفرنسى وعدم مطابقته للنطق ^(١) . — وما حدث في اللغة الفرنسية بهذا الصدد حدث مثله في سائر اللغات الأوروبية وخاصة الإسبانية والإيطالية والألمانية والإنجليزية ^(٢) .

ومن ذلك أيضاً تحول صوت *a* إلى صوت *i* في عدد كبير من مفردات اللغة اليونانية وفي بعض مواطن في اللغتين السلتيّة والفرنسية . وقد لوحظ أن هذا التحول يتم بالتدريج ، فينحرف صوت *a* إلى صوت آخر قريب منه ، وهذا إلى ثالث ... وهكذا حتى يصل إلى *i* ؛ ولوحظ كذلك أنه يقطع لهذه الغاية أحد طريقين : طريق قصير وهو *a, è, é, i* وطريق طويل وهو *a, o, ô, ou, u, i* ولم يحدث مطلقاً أن قطع في تطوره سيلاً آخر غير هذين الطريقين ، أو تخطى مرحلة من المراحل المرسومة في كليهما ، أو غير شيئاً في ترتيبها السابق بيانه .

٢ — وأما تناسخ الأصوات الساكنة فقد حدث كذلك في جميع اللغات الإنسانية .

(1) V. Dauzat op. cit. 64,65. (2) V. Dauzat op. cit. 63,64.

فكثير من الأصوات الساكنة في اللغة العربية قد تناسخت في اللهجات العامية وحل بعضها محل بعض . فالسين قد تحولت إلى صاد في بعض المواطن (« ساخن » « تحول إلى صاخن » في عامية الشرقية وغيرها) ؛ والصاد إلى سين في كثير من الألفاظ في عامية القاهرة وغيرها (فبدلا من يصدق ، مصير ... الخ ، يقال يَسَدِّق ، مَسِير) ؛ والصاد إلى طاء في عامية المغرب وخاصة طرابلس ، وفي لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (فبدلا من : وضوء يضع ، يضرب ، يضم ... الخ يقال : وظوء ، يظيع ، يظرب ، يظم ... الخ) ؛ والعين إلى نون في بعض الكلمات في لهجة العراقيين (فيقال مثلا : « ينطى » بدلا من « يعطى »)^(١) ؛ واللام إلى ميم في بعض الكلمات في عامية القاهرة (« امبارح » بدلا من « البارحة »)^(٢) ؛ والميم إلى نون أحيانا في عامية المصريين (فيقال « فاطنة » بدلا من « فاطمة ») ... وهلم جرا .

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في اللغات الهندية - الأوروبية .

فمن ذلك تحول صوت w في اللغة اللاتينية (وكان ينطق به كما ينطق به الآن في الإنجليزية ، وكما ينطق بالواو في العربية) إلى صوت v . فقد أخذ

(١) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بطاء . وعلى هذا النحو كانت تسير قديما لهجة هذيل .

(٢) هذه كذلك لغة حمير ، وقد جاء بها الحديث « ليس من امبرامصيام في امسفر » .

الصوت الأول، منذ مبدأ العصور الوسطى ، يدنو شيئاً فشيئاً من الصوت الأخير حتى استبدل هذا به في كثير من الكلمات في معظم اللغات المشعبة عن اللاتينية^(١).

ومن هذا القبيل كذلك ما حدث في صوت k المتبوع بصوت a في الكلمات اللاتينية . فقد تحول في اللغة الفرنسية في معظم مواطنه إلى ch (canem, caballum تحولاً في الفرنسية إلى chien, cheval)^(٢) .

ومن ذلك أيضاً ما حدث في اللغات الجرمانية من تناوب بين المجموعات الثلاثة الآتية من الأصوات : b, d, g. p, t, k. f, th, kh. فإن كل صوت من أصوات المجموعة الأولى قد تحول إلى ما يقابله في الترتيب من أصوات المجموعة الثانية ؛ وأصوات المجموعة الثانية تحولت بهذا النظام إلى أصوات الثالثة؛ وأصوات الثالثة إلى أصوات الأولى . فبالوازنة بين الكلمات الجرمانية وأصولها في اللغات الهندية - الأوروبية القديمة ونظائرهما في اللاتينية والإغريقية ، يظهر أن الأصوات الآتية المدونة في السطر الأول قد تحولت في اللغات الجرمانية إلى الأصوات المدونة تحتها في السطر الثاني :

b, d, g	p,	t,	k	f (ph)	th	kh
p, t, k	f (ph)	th	kh (gh)	b	d	g

كما يبدو ذلك من الأمثلة الآتية :

V. Dauzat op. cit. 65. 66. (١)

V. Delacroix, Langage et Pensée, 144 (٢)

(Sanskrit)	(Latin)	(Anglais)
pitar	pater	father
	frater	brother
	dentis	touth
	genu	knee
	pedis	fout

وقد حدث في بعض اللغات الجرمانية في العصور الوسطى تطور ثان في الأصوات الجديدة التي نجمت عن التطور الأول ، فتحوّلت هذه الأصوات نفسها إلى ما يقابلها في الجدول السابق . وحدث في اللغة الألمانية في العصور الحديثة تطور ثالث في الأصوات التي جاء بها التطور الثاني وفقاً للخطة نفسها المرسومة آنفاً ؛ وقد أدى ذلك إلى رجوع بعض هذه الأصوات إلى الأصل القديم الذي كانت عليه قبل التطور الأول . فالتاء مثلاً t في كلمة frater قد تحوّلت إلى ذال th فأصبحت bruther ؛ ثم تحوّلت هذه الذال إلى دال d فأصبحت bruder ؛ وهذه الدال قد تحوّلت في الألمانية الحديثة إلى تاء فأصبحت bruter . وبذلك عاد هذا الصوت بعد هذه التطورات الثلاثة إلى الأصل القديم الذي كان عليه قبل التطور الأول . وهذا هو ما اصطاح علماء اللغة من الألمان على تسميته « بالدورة الثلاثية »^(١) .

العوامل اللغوية المؤثرة في تطور الدلالة :

وأما العوامل اللغوية التي تؤثر في تطور الدلالة ، فيرجع أهمها كذلك إلى ثلاثة أمور :

(أحدها) عوامل تتعلق بمبلغ ارتباط الكلمة بفصيلتها ومبلغ وضوح دلالتها في الذهن . وذلك أنه كلما كان مدلول الكلمة واضحاً في الأذهان قل تعرضه للتغير؛ وكلما كان مبهماً غامضاً مرناً كثر تقلبه وضعفت مقاومته لعوامل الانحراف . ويساعد على وضوح مدلول الكلمة عوامل كثيرة من أهمها أن تكون مرتبطة بفصيصة من الكلمات معروفة الأصل . ويعمل على إبهامها عوامل كثيرة من أهمها ألا تكون لها أسرة معروفة الأصل متداولة الاستعمال .

هذا ، وإن انعزال الكلمة ، أى عدم اتصالها بأسرة معروفة ، لا يقف أثره عند تعريض مدلولها للانحراف عن وضعه الأصلي على الوجه الذى سبق شرحه ، بل كثيراً ما يعرضها هي نفسها للفناء .

فما أشبه الكلمات بأفراد الحيوانات الاجتماعية : يظل الواحد منها قوياً منيع الجانب ما اندمج في أفراد قطيعه وقوى تضامنه معه ؛ ويتعرض للأذى والهلاك كلما انعزل عنه أو وهنت العلاقات التي تربطه به . — ولهذا السبب كادت تنقرض من لغة التخاطب الفرنسية كلمات *Besicles; binocle; missive; visage; miroir*

وحل محل كل منها كلمة معروفة الاشتقاق قوية الصلة بأفراد أسرتها :

lunettes, lorgnon, lettre, figure, glace

(وثانيها) عوامل تتعلق بأصوات الكلمة . فثبات أصوات الكلمة يساعد على ثبات معناها ، وتغيرها يذل أحيانا السبيل إلى تغيره . وذلك أن صلتها بالأسرة التي تنتمى إليها وبالأصل المشتقة منه تظل وثيقة وواضحة في الذهن مادامت محتفظة بصورتها الصوتية ؛ وقوة هذه الصلة تساعد على ثبات مدلولها . على حين أن تغير صورتها الصوتية يضعف صلتها في الأذهان بأصلها وأسرته ويبعدها عنهما ؛ وهذا يجعل معناها عرضة للتغير والانحراف . فالوصف اللاتيني *vivus* ظل محتفظا بمعناه الأصلي (الحى ، ضد الميت) طوال المدة التي احتفظ فيها بأصوات بنيته ؛ وذلك لقوة ارتباطه عن طريق هذه البنية بأفراد أسرته *vivere, vita. etc* . ولكنه لم يلبث بعد أن تغيرت صورته الصوتية في الفرنسية إلى *vif* أن أخذ ينحرف شيئا فشيئا عن مدلوله القديم ، حتى بعد عنه ، وأصبح يدل الآن على الوصف بالقوة والحدة والنشاط . وذلك لأن تغير صورته الصوتية قد باعد ما بينه وبين أفراد أسرته (*vivre, vivant...etc*) ، فعرض مدلوله لهذا الانحراف . ومن هذا القبيل كذلك كلمة *sage* ؛ فإن انحراف صورتها الصوتية إلى هذا الوضع قد عزلها عن أفراد فصيلتها (*savoir, savant...etc*) وعرض مدلولها للتغير ، فانحرف من معنى العالم (ضد الجاهل) إلى معنى الهادئ المطيع .

(وثالثها) عوامل تتعلق بالقواعد . فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى تغير مدلول الكلمة ، وتساعد على توجيهه وجهة خاصة . فتذكير كلمة «ولد» مثلا في العربية (ولد صغير) ، قد جعل معناها يرتبط في الذهن بالذكر ، ولذلك

أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع ، حتى أصبحت لا تطلق في كثير
من اللهجات العامة إلا على الولد من الذكور . وكذلك كلمة homo في اللاتينية .
فقد كانت تطلق في الأصل على الإنسان رجلاً كان أم امرأة ؛ ولكن تذكيرها
ربط مدلولها في ذهن بنوع الذكور ، فأخذ يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع
حتى أصبحت في كثير من اللغات المنشعبة عن اللاتينية لا تطلق إلا على الرجال .

(٧) خلاصة هذا الفصل

مما تقدم في هذا الفصل تظهر لنا ثلاث حقائق هامة :
(إحداهما) أن اللغة - شأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى - عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها : أصواتها وقواعدها ومنتها ودلالاتها ؛ وأن تطورها هذا لا يجري تبعاً للأهواء والمصادفات ، أو وفقاً لإرادة الأفراد ، وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الآثار ، لا يد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدي إليه .

فليس في قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ما . أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يسيروا بها في سبيل غير السبيل التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي الموضحة في الفقرات السابقة . فهما أجادوا في وضع معجماتها ، وتحديد ألفاظها ومدلولاتها ، وضبط أصواتها وقواعدها ... ، ومهما أجهدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقاً ، وفي وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة في محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفتت من هذه القيود ، وتسير في السبيل التي تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء الطبيعيين .

وإليك مثلاً حالة اللغة العربية في صدر الإسلام وما آلت إليه الآن في لهجات

المحادثة : فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ عليها من تحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها فى الأصوات والقواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصورة التى تتفق مع قوانين التطور اللغوى ، فأصبحت على الحالة التى هى عليها الآن فى اللغات العامية .

حقاً انه يمكن أحيانا التحكم فى لغة الكتابة والجمود بها زمنا طويلا على أصولها القديمة أو ما يقرب منها . ولكن لغة الكتابة التى تجمد بهذا الشكل لا تمثل تمثيلا صحيحا حالة الحياة اللغوية فى الأمة ، وتتسع كثيراً مسافة الخلف بينها وبين لغة المحادثة . لأن هذه اللغة الأخيرة فى تطور مطرد ، ولا تستطيع أية قوة إلى تعويق تطورها سيلا . فلا تنفك تبعد عن لغة الكتابة الجامدة ، حتى تصبح كل منهما غريبة عن الأخرى ، ويصبح تعلم لغة الكتابة وتعليمها فى الأمة أشبه شئ بتعلم لغة أجنبية وتعليمها . وهذا هو ما كان عليه الحال بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال أيام أن كانت لغة الكتابة فيها هى اللاتينية ، وكانت لهجاتها المحلية مقصورة على شئون المحادثة ؛ وما عليه الحال الآن فى مصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة واللغة العربية الفصحى المتخذة لغة كتابة فى هذه الشعوب .

على أن ظاهرة كهذه لا تكاد تبدو إلا حيث تكون لغة المحادثة غير تامة التكون ولا كاملة النمو ؛ ولا تبقى إلا ما بقيت لغة المحادثة على هذه الحال . فإذا ما بلغت هذه اللغة أشدها ، وتم تكونها ، واكتمل نموها ، واتسع منها ،

ووضحت دلالات مفرداتها ووجوه استخدامها ، وتشعبت فيها فنون القول ، ودقت مناحي التعبير ، وقويت على تأدية حقائق الآداب والعلوم ، أخذت تطارد لغة الكتابة ، وتستلبها وظائفها وظيفه وظيفه حتى تجردها منها جميعاً ، فتصبح هي لغة الكتابة ، وتقذف بلغة الكتابة القديمة في زوايا اللغات الميتة . وهذا هو ما انتهى إليه أمر اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال .

فما أشبه لغة الكتابة الجامدة في حالات كهذه بجبل ثلج ثابت على سطح البحر ، ولغات المحادثة المتطورة بالتيارات المائية التي تموج تحته . فهما طال بقاء هذا الثلج ، فإن مصيره إلى التحطم والذوبان ؛ وحينئذ تطفو تلك التيارات إلى سطح البحر ، وتعيد إليه ما كان مستوراً تحت هذا الجبل الجامد من مظاهر النشاط والحياة .

(وثانيها) أن أهم العوامل التي تؤثر في تطور اللغة ترجع إلى الوشائج التي تربطها بحياة المجتمع وشئون الحياة الجمعية ، أى ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة . فجميع عوامل التطور التي ذكرناها في الفقرات الثلاث الأولى ^(١) ، وقسمهام من العوامل التي ذكرناها في الفقرة الرابعة ^(٢) مردها إلى الحياة الجمعية ، وما يمتاز به هذه الحياة من خصائص ، وتسير عليه من نظم ، وتسلكه من مناهج .

(وثالثها) أن بعض العوامل التي تؤثر في هذا التطور ترجع إلى أمور غير

(١) انظر صفحات ٩ - ٥٢ . (٢) انظر صفحات ٥٢ - ٥٤ .

اجتماعية ، كالعوامل التي ذكرناها في القسم الأخير من الفقرة الرابعة^(١) والتي ذكرناها في الفقرتين الخامسة والسادسة^(٢) .

حقاً إن الأهمية النسبية لهذه الطائفة من العوامل أقل كثيراً من أهمية العوامل الاجتماعية ؛ ولكنها في ذاتها عميقة الأثر في كثير من مظاهر التطور اللغوي .

وحقاً إنه من الممكن أن يرد بعضها إلى ظواهر الاجتماع ؛ ولكن قسطاً غير يسير منها لا يمت بصلة ما إلى هذه الظواهر أو يمت إليها بصلات ضعيفة أو ممعنة في البعد .

(٢) انظر صفحات ٦٢ - ٩٠ .

(١) انظر صفحات ٥٥ - ٦١ .

الفصل الثاني

صراع اللغات^(١)

يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعى وراء الغلب والسيطرة. وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال . فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين فيسارع إلى القضاء على الآخر مستخدماً في ذلك وسائل القسوة والعنف ، ويتعقب فلوله فلا يكاد يبق على أثر من آثاره . وتارة ترجح كفة أحدها كذلك ، ولكنه يعمل الآخر ، وينتقص بالتدريج من قوته ونفوذه ، ويعمل على خضد شوكته شيئاً فشيئاً حتى يتم له النصر . وأحياناً تتكافأ قواهما أو تكاد فتظل الحرب بينهما سجالاتاً ويظل كل منهما في أثناءها محتفظاً بشخصيته ومميزاته .

(١) سنقتصر في هذا الفصل على الصراع بين اللغات المستقلة . أما الصراع بين لهجات اللغة الواحدة فنعرض له في أثناء كلامنا على تفرع اللغات في الفصل الثالث من هذا الكتاب . وذلك لأن هذا النوع الأخير من الصراع يلزم التفرع ويسايره ويكمل عمله ، وذلك على عكس الصراع بين اللغات المنفصلة ، فإنه مستقل عن التفرع . — هذا وسيظهر لنا أن صراع اللغات بعضها مع بعض يؤدي إلى انقلابات وتطورات لغوية عميقة . فموضوع هذا الفصل يعد في حقيقة الأمر متمماً لموضوعات الفصل السابق ويتصل اتصالاً وثيقاً بالفقرة الثانية منه (انظر صفحات ٢٤ - ٣٠) .

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة أهمها عاملان ؛ أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله ؛ وثانيهما أن يتجاوز شعبان مختلفا اللغة فيتبادلا المنافع ويتاح لأفرادها فرص للاحتكاك المادى والثقافى .
وسنتقف على دراسة كل عامل من هذين العاملين ونتأججه فقرة على حديثها ، ونضيف إليهما فقرة ثالثة نبين فيها أثر العوامل الأخرى فى صراع اللغات ؛ ثم نختم الفصل بفقرة رابعة نستخلص فيها ما مهدينا إليه هذه الدراسة بصدد قوانين الصراع اللغوى وأثر الظواهر الاجتماعية فى سيره .

(١) العامل الأول من عوامل الصراع اللغوى

نزوح عناصر أجنبية إلى البلد

قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة ... أن ينزح إلى البلد عنصر أجنبى ينطق بلغة غير لغة أهله ؛ فتشتبك اللغتان فى صراع ينتهى إلى إحدى نتيجتين : فأحيانا تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم أصيلهم ودخيلهم ؛ وأحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معاً جنباً لجنب .

١ — الحالات التى يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى ، وهى أن تغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم ، فى حالتين :

(الحالة الأولى) أن يكون كلا الشعبين هجياً قليل الحضارة منحن الثقافة،
ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة . ففي هذه الحالة
تتغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أ كانت لغة الغالب أم المغلوب ، لغة الأصيل أم
الدخيل . وذلك أنه عند انعدام النوع يتحكم السكم في مصير الأمور . - ولكن
هذه النتيجة لا تحدث إلا إذا كان اللغتان المتصارعتان من شعبة لغوية واحدة
أو من شعبتين متقاربتين ^(١) .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . فمن ذلك أن الإنجليز السكسونيين ، حينما
نزحوا من أواسط أوروبا إلى إنجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات
السلتية التي كان يتكلم بها السكان الأصليون . وذلك لأن عدد من بقي من
السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد المغيرين ؛ وكلا الشعبين
كان هجياً منحنطاً في مستوى حضارته ومبلغ ثقافته ؛ وكلتا اللغتين تنتمى إلى
فصيلة اللغات الهندية - الأوروبية . والنورمانديون Normands ، حينما أغاروا
على إنجلترا في منتصف القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم أقاليمها ، لم تلبث
لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان ، أصيلهم
ودخيلهم ، إنجليزهم ونورمانديهم ، يتكلمون الإنجليزية السكسونية . وذلك
لأن الإنجليز المغلوبين كانوا أكثر عدداً من النورمانديين الغالبين ؛ ولم يكن

(١) انظر في فضائل اللغات الفصل الثاني من الباب الثالث من كتابنا « علم اللغة »
صفحات ١٧٩ - ٢٠٧ (الطبعة الثالثة) .

لأحد الشعبين إذ ذاك حضارة ولا ثقافة راقية ؛ وكلتا اللغتين من الفصيلة الهندية - الأوروبية .

وقد يحدث أحياناً في هذه الحالة أن تغلب لغة على أخرى من غير فصيلتها . ولكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث ، ولا يتم التغلب فيها إلا بصعوبة وبعد أمد طويل . واللغة التي تنشأ من هذا التغلب ينالها كثير من التحريف في السنة المحدثين من الناطقين بها ، لشدة الاختلاف بينها وبين لغتهم الأصلية ، فبعد كبراً كبيراً عن صورتها الأولى . فالبulgاريون ، وهم من أصل فينواى Finois ، حينما نزحوا إلى البلقان وامتزجوا بشعوب الصقلية (السلافيون Slaves) ، أخذت لغتهم تنهزم شيئاً فشيئاً أمام لغة هذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلها لسان صقلي . وذلك لأن عدد البulgاريين لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد الصقلية المترجين بهم ؛ وكلتا الفئتين كانت إذ ذاك همجية منحطة في مستوى حضارتها ومبلغ ثقافتها . وقد حدث هذا التغلب مع اختلاف اللغتين في الفصيلة فلغة البulgاريين الأصلية كانت من الفصيلة الفينية ، على حين أن اللغات الصقلية من الفصيلة الهندية - الأوروبية . ولكن هذا التغلب لم يتم إلا بصعوبة وبعد أمد طويل وصراع عنيف خرجت منه اللغة الغالبة مشوهة محرفة عن مواضعها في السنة المحدثين من الناطقين بها ، فبعدت بعداً كبيراً عن صورتها القديمة . فالبulgارية الحديثة هي أكثر اللهجات الصقلية تحريفاً وبعداً عن أصولها الأولى .

(الحالة الثانية) أن يكون الشعب الغالب أرق من الشعب المغلوب في حضارته

وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه بأسا وأوسع نفوذا . ففي هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان ، وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب ؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتمد بها من أفرادها في بلاد الشعب المغلوب ، وإن تبرز بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . فقد نجم عن فتوح الرومان في وسط أوروبا وشرقيها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى *Albes Centrales* والإيليريا *Illyrie* ؛ مع أن الرومان المغيرين كانوا في هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين . وقد نجم عن فتوح العرب في آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية^(١) والكوشيتية^(٢) ؛ فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة في معظم مناطق شبه الجزيرة العربية ، وفي مصر والسودان وشمال أفريقيا وفي جزء كبير من قسمها الشرقي المتاخم لبلاد الحبشة ؛ مع أن الجالية العربية في هذه البلاد كان

(١) هي لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا (انظر ص ١٨٥ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة ») .

(٢) هي لغات طائفة من السكان الأصليين للقسم الشرق من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر (انظر صفحتي ١٨٥ ، ١٨٦ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة ») .

عددها أقل كثيراً من عدد السكان الأصليين .

وفي كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يصل أحياناً إلى أربعة قرون ، وقد يمتد إلى أكثر من ذلك . فالرومان قد أخضعوا بلاد الجول La Gaul (فرنسا وما إليها) في القرن الأول الميلادي؛ ولكن لم يتم النصر للغتهم اللاتينية على اللغة السلتيّة التي كان يتكلم بها أهل هذه البلاد إلا حوالى القرن الرابع الميلادي . ومع ما كان للعرب من قوة الشوكة، ورق اللغة ، واتساع الحضارة ، وحماية الدين ، وسطوة الغالب ، لم يتم النصر للغتهم على القبطية والبربرية إلا بعد أمد طويل . على أن اللغة القبطية لا تزال مستخدمة في كثير من الطقوس الدينية الأرثوذكسية^(١) ؛ واللغات البربرية لا تزال إلى الوقت الحاضر لغة محادثة لدى بعض العشائر المغربية .

(١) لقد ظل انتشار اللغة العربية بطيئاً في مصر طوال القرن الهجري الأول . وقبل نهاية هذا القرن أى في سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م) وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر بالدواوين « فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية » (انظر السكندى ص ٥٨ ، ٥٩) . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية بمادتي « ديوان » و « قبط » : « أن الدواوين في مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية » ؛ وهذا هو الأصح .

وظل التحول من الكتابة باليونانية في الدواوين والتحدث بالقبطية إلى الكتابة والتحدث بالعربية يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، بدليل ما ذكره المقرئ من أن المأمون كان ينتقل فريفاً مصر ومعه مترجم (دخل المأمون مصر سنة ٢١٧ هـ . - انظر «النجوم الزاهرة» في أخبار مصر والقاهرة» لأبى المحاسن جزء ٢ صفحة ٢١٦) .

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهاد عنيف ، لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة نفسها التي كان عليها من قبل . فاللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها في كثير من مظاهرها وبخاصة في مفرداتها .

ويختلف مبلغ هذا التأثير باختلاف الأحوال : فتكثر مظاهره كلما طال أمد احتكاك اللغتين وكان النزاع بينهما عنيفاً والمقاومة قوية من جانب اللغة المقهورة ؛ وتقل مظاهره كلما قصرت مدة الصراع ، أو خفت وطأة النزاع ، أو كانت المقاومة ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة . فطول الأمد الذي استغرقه الكفاح بين لغة الإنجليز السكسون بإنجلترا ولغة الفاتحين من الفرنسيين النورمانديين (الذين أغاروا على بلاد الإنجليز في القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم مناطق إنجلترا كما سبقت الإشارة إلى ذلك) ، ولشدة المقاومة التي أبدتها اللغة النورماندية المقهورة ، خرجت اللغة المنتصرة (الإنجليزية) من هذا الصراع وقد فقدت أكثر من نصف مفرداتها الأصلية واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة ، واقتبست منها فضلاً عن هذا مفردات أخرى جديدة . على حين أن لغة

== حتى إذا كان القرن الرابع كانت غالبية الشعب المصري يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية ؛ بدليل أن رجال الكنيسة أنفسهم اضطروا في هذا القرن أن يلقوا مواعظهم في الكنائس باللغة العربية .

وليس معنى ذلك أن القبطية كانت قد انقرضت كل الانقراض في هذا العصر . فالحقيقة أنها ظلت باقية في السنة بعض المناطق مدة طويلة بعد ذلك ؛ بدليل ما يذكره المقدسي في « أحسن التقاسيم » (ألفه حوالي سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحي مصر كانوا يتحدثون بالقبطية .

بلاد الجول La Gaule التي انتصرت عليها اللغة اللاتينية لم تترك في اللغة الغالبة أكثر من عشرين كلمة^(١)؛ واللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تكسب تترك أى أثر في اللغة العربية الغالبة. وذلك لأن الصراع في هذين المثالين، على طول أمده، لم يكن عنيفاً، ولم تلق في أثناءه اللغتان الغالبتان (اللاتينية في المثال الأول والعربية في المثال الثاني) مقاومة شديدة من جانب اللغات المقهورة (لغة الجول السلتيّة في المثال الأول والقبطية والبربرية في المثال الثاني).

وتختلف كذلك النواحي التي يبدو فيها تأثير اللغة الغالبة باللغة المغلوبة تبعاً لاختلاف الأحوال التي تكون عليها كلتا اللغتين في أثناء اشتباهما. ويبدو هذا التأثير بأوضح صورة في النواحي التي تكون فيها اللغة المغلوبة متفوقة على اللغة الغالبة. ولذلك تألف معظم المفردات التي أخذتها الإنجليزية (الغالبة) عن الفرنسية النورماندية (المغلوبة) من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام. وذلك لأن النورماندية كانت غنية في هاتين الطائفتين من المفردات؛ على حين أن الإنجليزية كانت فقيرة فيهما كل الفقر؛ فعمدت إلى خصيمها المقهور واستلبته ما كان يعوزها قبل أن تجهز عليه. وإلى اقتباسها منه الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهى وألوان الطعام يرجع السبب في أسلوبها الغريب في تسمية الحيوانات المأكولة اللحم. فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها في الإنجليزية اسمان: اسم جرمانى الأصل يطلق

(١) على أن بعض هذه الكلمات كان قد انتقل إلى اللاتينية قبل غزو الرومان لبلاد الجول.

على الحيوان مادام حيا (sheep, calf, ox, pig) واسم آخر فرنسي الأصل يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للغذاء (mutton, veal, beef, pork) .

والألفاظ الأصلية للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف في السنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوين لغويا) فتبعد بذلك في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى . ويبلغ بعدها هذا أقصى درجاته إذا كانت اللغة المقهورة من فصيلة أخرى غير فصيلة اللغة الغالبة كما سبقت الإشارة إلى ذلك ^(١) . والألفاظ الدخيلة التي تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك كثير من التحريف في أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها ، فتبعد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة . وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشئ عن الصراع بين لغتين كتب لإحداها النصر ، بل هي ظاهرة عامة تتحقق في جميع الحالات التي يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ^(٢) .

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها مراحل كثيرة تمتاز كل مرحلة منها بمظهر خاص من مظاهر الانحلال وضعف المقاومة . ففي المرحلة الأولى تقذفها اللغة الغالبة بطائفة كبيرة من مفرداتها ، فتوهن بذلك متنها الأصلي ، وتجرده

(١) انظر ماورد بصفحة ٩٨ بصدد البلغارية الحديثة.

(٢) انظر صفحتي ٢٩ ، ٣٠ .

من كثير من مقوماته . ولكن اللغة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات : فيؤلف أهلها عباراتهم ويصرفون مفرداتهم وفقاً لقواعدهم المتعلقة بترتيب أجزاء الجملة وتصريف المفردات (السنتكس والمورفولوجيا) ، وينطقون بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لأسلوبهم الصوتي ومخارج حروفهم ؛ حتى إنهم ليستبدلون في الكلمات الدخيلة بالحروف التي لا يوجد لها نظير لديهم حروفاً قريبة منها من حروف لغتهم . وفي المرحلة التالية تتسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات . فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها وبالطريقة نفسها التي يسير عليها النطق في اللغة الغالبة . فيزداد بذلك انحلال اللغة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة في الدفاع عن قواعدها المتعلقة بترتيب أجزاء الجملة وتصريف المفردات (قواعد السنتكس والمورفولوجيا) وفي مقاومة قواعد اللغة الغالبة . فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . وفي المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً فتأخذ قواعد اللغة الغالبة في الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على اللغة المغلوبة . فالقواعد في اللغة المغلوبة أشبه شئاً بالقلعة التي تحتمي بها فلول الجيش المهزم وتقاتل عنها حتى آخر رمق ؛ والتي يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد .

ب - الحالات التي لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب :

وأما النتيجة الثانية وهي عدم تغلب إحدى اللغتين على الأخرى وبقاؤها معاً جنباً لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما في الفقرة السابقة .

والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الغابرة وفي العصر الحاضر . فاللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الإغريقية ، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب ؛ وذلك لأن الإغريق ، مع خضوعهم للرومان ، كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرق لغة ؛ وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعب الغالب لا يحدث إلا إذا كان الشعب الثاني أرق من الشعب الأول في جميع هذه الأمور ^(١) . ولهذا الأسباب نفسها لم تقو لغات الشعوب الجرمانية التي قوضت الأمبراطورية الرومانية الغربية في فاتحة العصور الوسطى على التغلب على اللغة اللاتينية في البلاد التي قهرتها بمناطق الجول La Gaule (فرنسا) وما إليها . واللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على لغات أهل بريطانيا العظمى ، على الرغم من فتح الرومان لبلادهم واحتلالهم إياها نحو مائة وخمسين سنة ، وعلى الرغم من أن الشعب الغالب كان أرق كثيراً من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته . وذلك لأن الجالية الرومانية في الجزر البريطانية لم تكن شيئاً مذكوراً ولم تتمزج امتزاجاً كافياً بأفراد الشعب المغلوب . وقد تقدم أن الغلب اللغوي لا يتم في مثل هذه الحالات إلا إذا أقامت في البلاد المقهورة جالية يعتمد بها من

(١) انظر السطر الأخير من ص ٩٨ وأول ٩٩ .

أفراد الشعب الغالب وتم الامتزاج بينها وبين أفراد الشعب الآخر^(١) . واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية ، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلاً ، وذلك لأن الشعب العربي لم يكن إذ ذاك أرقى حضارة من الشعب الفارسي ، ولقلة عدد الجالية العربية بفارس وضعف امتزاجها بالسكان ، ولانتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين (فالعربية من الفصيلة السامية والفارسية من الفصيلة الهندية - الأوروبية)^(٢) . واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغات الإسبانية على الرغم من فتح العرب للأندلس وبقائها تحت سلطانهم نحو سبعة قرون . وذلك لانتماء العربية إلى فصيلة غير فصيلة اللغات الإسبانية ، ولعدم امتزاج الشعوب القوطية بالشعب العربي . واللغة التركية لم تقو على التغلب على لغة أية أمة من الأمم التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية بأوروبا وآسيا وأفريقيا ، على الرغم من بقاء هذه الأمم مدة طويلة تحت سلطان تركيا . وذلك لاختلاف فصائل اللغات (فالتركية من الفصيلة الطورانية على حين أن لغات معظم الأمم التي كانت خاضعة لتركيا من الفصيلة السامية - الحامية ، أو الهندية - الأوروبية) ، ولأن الترك كانوا أقل حضارة وثقافة من معظم الشعوب التي كانت تابعة لهم ، ولقلة عدد جالياتهم

(١) انظر أول صفحة ٩٩ .

(٢) تقدم أن انتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين يحول غالباً دون انتصار إحداها على الأخرى (انظر صفحة ٩٩ ، السطر الخامس) .

في بلاد هذه الشعوب ، ولضعف امتزاجها بالسكان .

ولكن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى .
فقد تأثرت اللاتينية بالإغريقية في أساليبها وآدابها واقتبست منها طائفة كبيرة
من مفرداتها . وقد تركت اللغة العربية آثاراً قوية في الإسبانية والبرتغالية ،
وبخاصة في المناطق التي كانت تسمى بالأندلس أو أندلوسيا *Andalousie*
حيث دام سلطان العرب عدة قرون^(١) . والصراع بين العربية والفارسية ،
وإن لم ينته إلى تغلب إحداها ، قد ترك في كل منهما آثاراً واضحة من الأخرى ،
وبخاصة في ناحية المفردات . والصراع بين التركية ولغات الأمم التي كانت خاضعة
للإمبراطورية العثمانية ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد ترك في التركية آثاراً
قوية من هذه اللغات وبخاصة من اللغة العربية ، وترك كذلك في كثير من هذه
اللغات آثاراً ظاهرة من التركية^(٢) .

(١) ويظهر أن الآثار التي تركتها العربية في البرتغالية قد بلغت هي أيضاً درجة كبيرة
من الضخامة ، حتى إن بعض الباحثين أفرد مؤلفات خاصة في الكلمات البرتغالية المأخوذة من
العربية . ومن هؤلاء الأستاذ راجى باسيل من أهل « ريو دي جنيرو » بالبرازيل . فقد
طبع أربع كراسات عنوانها « معجم الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية » ، وقدم هذه
الكراسات إلى جريدة الأهرام ، كما ورد بعددها الصادر في ٢٩/٣/٤٤ .

(٢) قد بلغ هذا التأثير مبلغاً كبيراً في بعض هذه اللغات : فلغة العراق في العصر
الحاضر مثلاً قد أخذت عن التركية كثيراً من المفردات وبعض الأصوات التي لا نظير لها في
العربية (كالصوت الذي ينطق به بين الشين والجيم المعطشة في مثل عربنجى) وطائفة من
القواعد الصرفية كقواعد النسب والنعت والإضافة في مثل : عربنجى (نسبة إلى العربة) ،
خوش ولد (خوش كلمة فارسية الأصل معناها حسن) ، كتبخانة (دار الكتب) .

٢ - نظرة عامة في العامل الأول

وقصارى القول : متى اجتمع لغتان في بلد واحد لا مناص من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء أُنْغِلت إحداها أم كُتِب لكتبيهما البقاء . غير أن هذا التأثير يختلف في مبلغه ومنهجه ونواحي ظهوره ونتائجه في الحالة الأولى عنه في الحالة الثانية .

فإذا كان الغلب كتب لإحداها زارها تسيغ كل ما تأخذه من الأخرى مهما كثرت كميته ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطا ، بدون أن تدع له مجالا للتأثير في بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلي ؛ على حين أن المغلوبة لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الغالبة من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئا فشيئا حتى تزول : كما كان شأن الإنجليزية الغالبة مع النورماندية المغلوبة .

وإذا كان البقاء قد كتب لكتبيهما تعتمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتفيض عليه من حيويتها وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية موفورة القوى سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع العربية .

(٢) العامل الثانى من عوامل الصراع اللغوى

— تجاور شعبين مختلفى اللغة

يتيح تجاور شعبين مختلفى اللغة فرصاً كثيرة لاحتكاك لغتيهما ، فتشتبك
في صراع ينتهى إلى واحدة من النتيجتين نفسيهما اللتين ينتهى إليهما الصراع في
العامل الأول : فأحياناً تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى وتحتل مناطقها ،
فتصبح لغة مشتركة بين الشعبين ؛ وأحياناً لا تقوى واحدة منهما على الأخرى
فتعيشان معاً جنباً لجنب .

١ — الحالات التى يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى وهى تغلب اللغتين على الأخرى فى حالتين :
(الحالة الأولى) إذا كانت نسبة النمو فى أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثف
فيها ساكنوه ، وتضيق مساحته بهم ذرعا ، فيشتد ضغطه على حدود الشعب
المجاور له ، وتكثر تبعاً لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين . وفى
هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له ؛ على
شريطة ألا يقل عن أهلها فى حضارته وثقافته وآداب لغته ؛ ويتأكد انتصاره
إذا كان أرق من أهلها فى هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . وأكثرها دلالة بهذا الصدد ما كان
من أمر اللغة الألمانية . فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة

لألمانيا بأوروبا الوسطى (بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى^(١).

(الحالة الثانية) إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين في الشعب المجاورة له. وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب القوى النفوذ؛ على شريطة ألا يقل عن الآخر في حضارته وثقافته وآداب لغته؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرق منه في هذه الأمور.

والأمثلة على ذلك كثيرة في مختلف مراحل التاريخ. فلغة الباسك^(٢) قد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين وأمام اللغة الإسبانية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الإسبانين، حتى كادت تنقرض في كليهما. - واللهجات السلتيّة التي كان يتكلم بها معظم السكان بإيرلندا وويلز واسكتلندا قد أخذت تنهزم أمام اللغة الإنجليزية منذ أن تغلغل نفوذ إنجلترا في هذه البلاد، حتى زالت من لغة الأدب والكتابة، وكادت تنقرض انقراضاً تاماً من لغة الحديث. وهكذا كان مصير اللهجة

(١) ترجع بعض مظاهر هذا التغلب اللغوي إلى الغارات التي شنّها الجرمان قديماً على هذه المناطق، أي إلى أمور تتصل بالعامل الأول لا بهذا العامل. فالتمثيل هنا مقصور على الحالات التي تم فيها تغلب اللغة الألمانية في صورة سلمية تحت تأثير الجوار وتكاثر السكان.

(٢) لغة الباسك Baspue أو الاسكارا Euskara، يتكلم بها الباسكيون، وهم شعب يقطن منطقة البرانس الغربية في العدوتين الإسبانية والفرنسية (انظر ص ١٩٢ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة »).

السلتية التي بقيت بمقاطعة اليرينون Bretagne (في القسم الغربي من فرنسا على سواحل الإطلا نطيق) ؛ فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا في هذه المقاطعة ، حتى لم يبق لها إلا آثار ضئيلة في لغة الحديث بين الأميين من الشيوخ ^(١) . - واللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا ؛ فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان « والونيا » Wallonie ببلجيكا ^(٢) ولنحو ٢٢ ٪ من سكان سويسرا . - واللغة الإيطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٣ و ٥ ٪ من سكان هذه الجمهورية .

(١) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بشيء من استقلالها الذاتي حتى عام ١٤٩١ (في عهد شارل الثامن) . ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسي . ولكن لم يتم ضمها إلى فرنسا إلا عام ١٥٣٢ في عهد فرنسوا الأول . وقد انقرضت السلتية في هذه المقاطعة اقراضا تاما من لغة الكتابة والأدب . وانقرضت كذلك من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر . وكادت تنقرض من لغة الشيوخ أنفسهم . وقد زرت هذه المقاطعة وقضيت عدة أشهر منتقلا في بلادها ، فلم أسمع هذه اللغة إلا من عدد قليل من الشيوخ الأميين . وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون لغتهم هذه إلا فيما بينهم . أما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية ؛ ولكن ينال كلماتها وتراكيبها وأساليبها في ألسنتهم كثير من التحريف .

(٢) وهو القسم الجنوبي من بلجيكا ، وينحدر سكانه من أصول سلتية ولاتينية . على حين أن القسم الشمالي المسمى بالفلاندر Flandre ينحدر سكانه من أصل جرمانى ويتكلمون اللغة الفلامندية Flamande التي يتألف منها ومن اللهجات الهولندية فرع اللغات النيرلاندية Néerlandaises وهو أحد فروع اللغات الجرمانية الغربية (انظر ص ١٨٢ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة ») .

وعلى هذا الأساس نفسه تغلب في المملكة الواحدة لغة المقاطعة التي تكون بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ . فلو قوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) في مقاطعة « والونيا » ذات اللسان الفرنسي ، ولأن سكان هذه المقاطعة يتمتعون بقسط كبير من النفوذ والسلطان في هذه المملكة ، أخذت اللغة الفرنسية تغلب على الفلامندية (لغة القسم الشمالى من بلجيكا المسمى « فلاندر »)^(١) وتنتقصها من أطرافها . - ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) في القسم الناطق بالألمانية ، ولأن سكان هذا القسم يتمتعون بأكثر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم الأغلبية الساحقة (يتكلم الألمانية في سويسرا نحو ٧٠ ٪ من أهلها) ، أخذت اللغة الألمانية تطفئ على السنة الناطقين بالفرنسية من السويسريين . - وقد أخذت لغة قريش قبيل الإسلام تغلب على اللغات المصرية الأخرى ؛ لما كانت تتمتع به من سلطان أدبي ، ويستأثر به أهلها من نفوذ ديني وسياسي .

وفي كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يبلغ أحيانا بضعة قرون^(٢) . فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق ، ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائي . - والصراع

(١) انظر التعليق السابق .

(٢) تزيد عادة المدة التي يظهر فيها أثر هذا العامل عن المدة التي يظهر فيها أثر العامل السابق والتي أشرنا بصفحة ١٠٠ .

بين اللغة الفرنسية واللسان السلتي الذي يتكلم به البريتونيون (سكان مقاطعة
البريتون Bretagne) قد نشب منذ عدة قرون ؛ ومع ذلك لا يزال كثير من
شيوخ البريتون في العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان^(١) . - ولا تزال اللهجة
السلتية لغة محادثة بين عامة الإيرلنديين في العصر الحاضر، مع أن تغلب الإنجليزية
عليها قد بدأ في هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي . - وقد
أخذت لغة قريش تطفئ على اللغات المضرية الأخرى منذ العصر الجاهلي ؛
ومع ذلك ظلت هذه اللغات حية في كثير من المواطن إلى أواخر العصر
العباسي .

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل لا يخرج المنتصر من
معاركه على الحالة التي كان عليها من قبل . فاللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج
سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر
بها في بعض مظاهرها وبخاصة في مفرداتها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في
العامل الأول^(٢) . غير أن تجرد العامل الذي نحن بصدد الكلام عنه من عنف
النزاع وشدة المقاومة ، وحدث نتائج في صورة سلمية متدرجة بطيئة ، كل
ذلك يعمل على وقاية اللغة الغالبة ويخفف من مبلغ تأثرها باللغة المغلوبة .
والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها بعض التحريف في ألسنة المحدثين من

(١) انظر ص ١١١ والتعليق الأول بهذه الصفحة . (٢) انظر ص ١٠١ وتوابعها .

الناطقين بها (المغلوبين لغوياً) ، فتختلف بعض الاختلاف في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى .

والكلمات الدخيلة التي تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف في حروفها ومعانيها وأساليب نطقها ، فتبعد في جميع هذه النواحي عن شكلها القديم .

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها المراحل نفسها التي أشرنا إليها في العامل الأول : فينفذ الانحلال أولاً إلى مفرداتها ؛ ثم إلى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات ؛ ويتم الإجهاز عليها بالقضاء على قواعدها^(١) .

ب — الحالات التي لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهي عدم تغلب إحدى اللغتين المتجاورتين على الأخرى وبقاؤهما معاً جنباً لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما في الفقرة السابقة . ويدخل في هذا الباب معظم العلاقات بين اللغات المتجاورة في العصر الحاضر . فالجوار بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال لم يؤد إلى تغلب لغة شعب منها على لغة شعب آخر ؛ لأن احتكاك لغاتها لا ينطبق على حالة من الحالتين اللتين يحدث فيهما التغلب بالمجاورة . — ولهذا السبب نفسه

(١) انظر آخر ص ١٠٣ وصفحة ١٠٤ .

لم يؤد الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية إلى تغلب لغة منها على أخرى . وكذلك شأن الإنجليزية في الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الإسبانية المجاورة لها في المكسيك ؛ وشأن البرتغالية التي يتكلم بها في البرازيل مع الإسبانية التي يتكلم بها في الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية (كولومبيا ، بيرو ، بوليفيا ، باراجواي ، أوروجواي ، الأرجنتين ... الخ) ؛ وكذلك شأن الحبشية مع الصومالية ... وهلم جرا .

غير أن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى . فالإنجليزية الحديثة بالمترا والفرنسية الحديثة بفرنسا تتقارضان المفردات منذ أن أتيح للشعبيين المتجاورين فرص للاحتكاك وتبادل المنافع . وكذلك تفعل الفرنسية بفرنسا مع الألمانية بألمانيا^(١) ومع أخواتها المجاورة لها في الجنوب الشرق والغربي بإيطاليا وإسبانيا والبرتغال . - وتجاور التركية والفارسية ، وإن لم يؤد إلى تغلب إحداها على الأخرى ، قد ترك في التركية آثاراً واضحة من الفارسية وبخاصة في المفردات ، وترك كذلك في الفارسية بعض آثار من التركية . - وتجاور الفارسية والعراقية في العصر الحاضر ، وإن لم ينته إلى

(١) انتقل إلى الألمانية الحديثة ، تحت تأثير جوارها لفرنسا ، كثير من المفردات الفرنسية ، لدرجة أزعجت أولى الأصم وملتهم على التدخل لصد هذا التيار وإحلال مفردات ألمانية محل المفردات الفرنسية الدخيلة ، ولكن قسماً كبيراً من جهودهم بهذا الصدد قد ذهب أدراج الرياح .

تغلب لغوى ، قد نقل إلى كل منهما كثيراً من آثار الأخرى في المفردات والقواعد والأساليب . - ومجاورة الجرمانية واللاتينية في العصور القديمة ، وإن لم ينته إلى تغلب إحداهما ، قد نقل إلى أولاهما كثيراً من مفردات الثانية^(١) وترك في الثانية بعض آثار من الأولى^(٢) .

ج - نظرة عامة في العامل الثانى

وقصارى القول : متى أتيح للقتين متجاورتين فرص للاحتلاك ، لامناص من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء أغلبت إحداها أم كتب لكليهما البقاء . غير أن هذا التأثير يختلف في الحالة الأولى عنه في الحالة الثانية .

فإذا كان الفناء قد حق على إحداهما ، فإنها لا تقوى على مقاومة ما تقدفها به الثانية من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمد ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتنفى أنسجتها الأصلية شيئاً فشيئاً حتى تزول ؛ على حين أن الغالبة تسيغ كل ما تأخذه من الأخرى ، مهما كبرت كميته وعظم شأنه ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ،

(١) كثير من المفردات الألمانية تبدو جرمانية خالصة ، ولكن يظهر عند البحث أنها مقتبسة في الأصل من اللاتينية . فمن ذلك مثلا : *schreiben* = يكتب ؛ *lesen* = يقرأ ؛ *Katze* = قط ؛ *Pflanze* = نبات . فإنها على الرغم من ظاهرها الجرمانى مأخوذة من الكلمات اللاتينية : *Scribere, Legere, Catta, Pianta* .

(٢) غير أن تأثر اللاتينية بالجرمانية كان في حكم القدم قبل غارات الجرمان على الامبراطورية الرومانية الغربية في فاتحة العصور الوسطى .

فترداد به قوة ونشاطا ، بدون أن تدع له مجالا للتأثير في بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلي ؛ كما كان شأن الإنجليزية والفرنسية الغالبتين مع اللهجات السلتيّة المغلوبة بأرلندا وويلز ومقاطعة البريتون^(١)

وإذا كان البقاء قد كتب لكتيهما ، تعتمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغة وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية ، موفورة القوى ، سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع التركية ؛ والفرنسية مع الإيطالية والإسبانية والبرتغالية .

(٣) عوامل أخرى للاحتكاك اللغوي

هذا وفيما عدا العاملين السابقين ، توجد عوامل أخرى كثيرة تتيح الفرص للاحتكاك بين اللغات ، ولكنها أقل شأنًا من هذين العاملين ، وأضعف منهما أثرًا ؛ إذ ليس منها ما ينجم عنه صراع جدي ، أو يؤدي إلى نتائج ذات بال . ومن أهم هذه العوامل ما يلي :

١ - اشتباك شعبين مختلفي اللغة أو شعوب مختلفة اللغات في حرب طويلة الأمد . وذلك أن طول الاحتكاك بين الشعوب المتحاربة ينقل إلى لغة كل شعب منها آثارا من لغات الشعوب الأخرى ، سواء في ذلك لغات الحلفاء ولغات الأعداء . فاحتكاك الألمانية والفرنسية والإنجليزية في الحرب العالمية الأولى

(١) لم تترك اللغات المغلوبة في هذه الأمثلة أثرًا مذكورًا في اللغتين الغالبتين .

قد نقل إلى كل لغة منها مفردات من اللغتين الآخرين . — و « حرب الثلاثين »
التي نشبت بين حماة البروتستانتية وحماة الكاثوليكية ، وامتدت من سنة
١٦١٨ إلى سنة ١٦٤٨ ، أتاح فرصاً كثيرة للاحتكاك بين الفرنسية والألمانية^(١)
فنقلت إلى كل منهما بعض مفردات من الأخرى . وحروب فرنسا مع إيطاليا
قد نقلت إلى الفرنسية كثيراً من الكلمات المتعلقة بشئون الحرب والفنون الجميلة
وما إلى ذلك من الأمور التي كانت اللغة الإيطالية أوسع ثروة فيها من اللغة
الفرنسية ؛ ونقلت كذلك إلى الإيطالية عدداً غير يسير من الكلمات الفرنسية .
والحروب الصليبية قد نقلت إلى كثير من اللغات الأوروبية ، وبخاصة إلى
اللغة الفرنسية ، كثيراً من مفردات اللغة العربية ، ونقلت كذلك إلى بعض
لهجات الأمم العربية بعض كلمات أوروبية .

٢ — توثق العلاقات التجارية بين شعبين مختلفي اللغة . وذلك أن منتجات
كل شعب تحمل معها أسماءها الأصلية ، فلا تلبث أن تنتشر بين أفراد الشعب
الأخر وتمتزج بمقتضى لغته ؛ وكثرة الاحتكاك التجاري بين أفراد الشعبين ينقل
إلى لغة كل منهما آثاراً من اللغة الأخرى .

٣ — توثق العلاقات الثقافية بين شعبين مختلفي اللغة . فإن ذلك ينقل إلى
لغة كل منهما ، وبخاصة إلى لغة الكتابة ، آثاراً كثيرة من الأخرى . وهذه
الآثار لا تقف عند حدّ المفردات ، بل تتجاوزها غالباً إلى الأساليب . والأمثلة

(١) وذلك على الرغم من أن فرنسا لم تشترك اشتراكاً صريحاً إلا في المرحلة الأخيرة
من هذه الحرب (من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٤٨) .

على ذلك كثيرة في تاريخ الأمم الحاضرة والماضية . فاللغة العربية في العصر العباسي ، وبخاصة لغة الكتابة ، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغتين الفارسية واليونانية . ولغة الكتابة بمصر في العصر الحاضر ، سواء في ذلك لغة العلوم ولغة الآداب ولغة الصحافة ، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثير من آثار اللغات الأوروبية وبخاصة الإنجليزية والفرنسية .

غير أن علاقة هذه العوامل وما إليها بتطور اللغة وارتقاءها أشد كثيراً من علاقتها بالصراع بين اللغات . فهي تتيح الفرص لاقتباس اللغات بعضها من بعض وتبادلها المفردات والأساليب ، بدون أن تحدث بينها صراعاً جدياً أو تحمل إحداها على محاولة التغلب على الأخرى . ولذلك عرضنا لبعض آثار هذه العوامل في أثناء كلامنا على تطور اللغة في الفصل الأول من هذا الكتاب^(١) .

(٤) خلاصة هذا الفصل

هذا ، والنتائج التي تهدينا إليها دراستنا لهذا الموضوع هي النتائج نفسها التي انتهت إليها دراستنا لموضوع الفصل الأول :

١ — فقد ظهر لنا مما تقدم في هذا الفصل أن الطريق التي يسير فيها الصراع اللغوي ، والخطط التي ينهجها ، والمدة التي يستغرقها ، والنتائج التي ينتهي إليها ، ومبلغ تأثير كلتا اللغتين المتصارعتين بالأخرى ، والنواحي التي يبدو فيها هذا التأثير ، وما ينال عناصر كليهما من تغير وانحراف ، والمراحل التي تقطعها اللغة الغالبة في سبيل انتصارها والمغلوبة في سبيل انقراضها ، وموقف كل منهما حيال الأخرى في حالة تكافؤ القوى ... كل أولئك وما إليه لايجرى تبعاً للأهواء والمصادفات ، ولا وفقاً لإرادة الأفراد ، وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الآثار ، لايد لأحد على وقفها أو تغيير ما تؤدي إليه .

فليس في قدرة الأفراد أن يغيروا شروى تغير في المناهج أو في النتائج التي رسمتها قوانين هذا الصراع . فهما أجهد الشعب نفسه في نشر لغته في شعب آخر ، ومهما رغب في القضاء على لغة هذا الشعب أو إضعافها ، ومهما اتخذ في سبيل ذلك من وسائل ، ومهما كان مؤيداً بسعة النفوذ وقوة السلطان ... ، فإنه لن يحدث أكثر ولا أقل مما تقضي به قوانين الصراع اللغوي .

وإليك مثلاً حالة اللغة العربية مع لغات الشعوب التي خضعت لسلطان العرب . فعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت للقضاء على لغات هذه الشعوب وإحلال العربية محلها ؛ وعلى الرغم مما كان للعرب حينئذ من قوة الشوكة ، ورق اللغة ، واتساع الحضارة ؛ وعلى الرغم من أن هذه الشعوب قد دانت لسلطانهم واعتنقت ديانتهم ؛ وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين الدين الإسلامى ولغة القرآن ... على الرغم من هذا كله فإن اللغة العربية لم يكتب لها النصر إلا فى المواطن التي تقضى قوانين الصراع اللغوى بانتصارها فيها ، ولم تستطع سبيلاً إلى القضاء على لغات المواطن الأخرى .

٢ — وقد ظهر لنا مما تقدم فى هذا الفصل أن أهم الأسباب التي تؤدى إلى الصراع اللغوى وأهم العوامل التي تؤثر فى سيره ونتائجه ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة . فالفتح ، والاستعمار ، والحرب ، وهجرة السكان ، واحتكاك شعبين متجاورين ، وتوثق العلاقات التجارية أو الثقافية بين أمتين ... وما إلى ذلك من الأمور التي تقدم أنها تثير الصراع بين اللغات ؛ وتقارب الشعبين فى درجة الحضارة والثقافة أو تباعدها فيها ، وتغلغل النفوذ السياسى أو الاقتصادى لشعب ما فى شعب آخر ، وامتزاج جالية ما بسكان الشعب المقيمة فى بلاده ... وما إلى ذلك من العوامل التي تبين فيما سبق مبلغ أثرها فى سير الصراع اللغوى وفى نتائجه ؛ كل هؤلاء وأولئك مردّه إلى ظواهر الاجتماع وشئون العمران .

٣ — غير أنه قد ظهر لنا كذلك أن بعض العوامل التي تؤثر فى هذا

الصراع ترجع إلى أمور غير اجتماعية ؛ وذلك كعدد أفراد كل من الشعبين المشتبكين في صراع لغوى ونسبته إلى عدد أفراد الشعب الآخر ، وتكاثف السكان في أحدها أو تخلخله بالنسبة إلى خصيمه ، وكاتفاق اللغتين المتصارعتين في الفصيلة التي تنتميان إليها أو اختلافهما فيها .

حقاً أن آثار هذه العوامل في الصراع اللغوى ليست شيئاً مذكوراً بجانب آثار العوامل الاجتماعية ، كما ظهر ذلك من دراستنا السابقة . ولكن مهما يكن لهذه الآثار من أهمية نسبية ، فإن عليها تتوقف نواح كثيرة في سير الصراع اللغوى وفي نتائجها .

وحقاً أنه من الممكن أن يرد معظم هذه الطائفة من العوامل بل جميعها إلى ظواهر الاجتماع . فتكاثف السكان أو تخلخلهم وانتماء اللغتين إلى فصيلة واحدة أو إلى فصيلتين مختلفتين ... كل ذلك يمكن أن يعد هو نفسه نتيجة لأمر متصل بالحياة الاجتماعية ، وشئون العمران ، ومبلغ الصلات بين الشعوب . ولكن الآثار التي تنجم عن هذه الطائفة من العوامل في الصراع اللغوى لا تتصل بظواهر الاجتماع إلا عن طريق غير مباشر ؛ فهي تنجم مباشرة عن أمور غير اجتماعية في ذاتها ، وإن كان من الممكن رد هذه الأمور إلى ظواهر الاجتماع .

الفصل الثالث

تفرع اللغة الواحدة

إلى لهجات ولفات (١)

يرجع السبب الرئيسي في هذا التفرع إلى انتشار اللغة في مناطق مختلفة واسعة ، واستخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس .

ولكن هذا السبب الرئيسي لا يؤدي عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة ؛ بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدي إلى هذه النتيجة .

وتبدو هذه النتيجة في صورتين : إحداها انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات محلية *Dialectes locaux* » يتكلم بكل لهجة منها منطقة خاصة من مناطق هذه اللغة ؛ وثانيتهما انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات اجتماعية *Dialectes sociaux* » تتكلم بكل لهجة منها طبقة خاصة من طبقات السكان .

(١) من الواضح أن هذا التفرع مظهر هام من مظاهر التطور اللغوي . فموضوع هذا الفصل الثالث يعد في الحقيقة متمماً لموضوعات الفصل الأول . ولما كان الفصل الثاني نفسه يعالج بعض نواحي التطور اللغوي (انظر التعليق المدون بصفحة ٩٥) ، لذلك يمكن أن نعد جميع فصول الكتاب الثلاثة دراسة للتطور اللغوي من مختلف نواحيه .

وسنقف الفقرة الأولى من هذا الفصل على دراسة السبب الرئيسى فى التفرع وهو انتشار اللغة .

ونقف الفقرة الثانية على دراسة العوامل التى يتيحها السبب الرئيسى السابق ، وتؤدى عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

ونقف الفقرتين الثالثة والرابعة على دراسة الصورة الأولى من صور هذا التفرع وهى التى تتمثل فى انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات محلية » ؛ والفقرتين الخامسة والسادسة على دراسة الصورة الثانية من صور هذا التفرع وهى التى تتمثل فى انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات اجتماعية » .

ثم نختم الفصل بفقرة سابعة نستخلص فيها ما مهدينا إليه هذه الدراسة بصدد قوانين التفرع وأثر الظواهر الاجتماعية فى سيره .

(١) انتشار اللغة وأسبابه

وأثره الرئيسى فى التفرع اللغوى

تختلف اللغات الإنسانية فى مبلغ انتشارها اختلافاً كبيراً ، فمنها ما متاح له فرص مواتية ، فينتشر فى مناطق واسعة من الأرض ، ويتكلم به عدد كبير من الأمم الإنسانية ؛ كما حدث للآتينىة والعربية فى العصور القديمة والوسطى ، ولإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية فى العصور الحديثة . ومنها ما تسد أمامه المسالك ، فيقضى عليه أن يظل حبيساً على منطقة ضيقة من

الأرض وفئة قليلة من الناس ؛ كما حدث للأينو^(١) والبسكية^(٧) والليتونية^(٣).
ومنها ما يكون حاله وسطا بين هذا وذاك فلا تتسع مناطقه كل السعة ولا تضيق
كل الضيق ؛ كما هو شأن الحبشية والفارسية .

هذا ، ولا انتشار اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها إلى مايلي :

١ — أن تشتبك اللغة في صراع مع لغة أو لغات أخرى ، وتقضى نواويس
الصراع اللغوى المتقدم ذكرها في الفصل السابق أن يكتب لها النصر ، فتحتل
مناطق اللغة أو اللغات المقهورة ، فيتسع بذلك مدى انتشارها ، وتدخل أهم
جديدة في عداد الناطقين بها . كما حدث لللاتينية في العصور القديمة إذ تغلبت
على اللغات الأصلية لإيطالية وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما
إليها) والألب الوسطى والإليريا Ilyrie ، فأصبحت لغة الحديث والكتابة في
منطقة واسعة في القسم الجنوبي الغربي من أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة
على منطقة ضيقة في وسط إيطاليا ، هي منطقة اللاتيوم Latium^(٤) . وكما حدث

(١) يتكلم بها الآن نحو عشرين ألفاً من سكان جزر هو كادو وسكهاين وشيكوتو
التابعة لليابان (انظر ص ١٨٩ رقم ٣ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة ») .

(٢) يتكلم بها الآن نحو ٨٠٠٠٠٠ من الباسكيين الذين يقطنون جبال البرانس
الغربية في العدوتين الفرنسية والإسبانية (انظر ص ١٩٢ رقم ١٢ من الطبعة الثالثة
لكتابنا « علم اللغة ») .

(٣) يتكلم بها سكان ليتونيا الذين يبلغ عددهم الآن نحو مليونين (انظر ص ١٨٢
رقم ٨ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة ») .

(٤) انظر ص ٩٩ .

لغة العربية إذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية ، حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو ٦٠ مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانوا قديماً لا يتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من بلاد العرب^(١) . وكما حدث للألمانية إذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوروبا الوسطى (بألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو مائة مليون من سكان أوروبا ، بعد أن كانت قديماً مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية^(٢) .

٢ — أن ينتشر أفراد شعب ما ، على أثر هجرة أو استعمار ، في مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم الأولى ، ويتكون من سلالاتهم بهذه المناطق أمة أو أمم متميزة كثيرة السكان ، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم ، وتتعدد الجماعات الناطقة بها ويكثر أفرادها . والأمثلة على ذلك كثيرة في العصور الحديثة . فقد نجم عن استعمار الإنجليز السكسون لأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا أن انتشرت الإنجليزية في هذه المناطق المبعثرة ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو مئتي مليون موزعين على مختلف قارات الأرض ،

(١) انظر آخر صفحة ٩٩ وأول صفحة ١٠٠ .

(٢) انظر آخر ص ١٠٩ وأول ١١٠ .

بعد أن كانت قديما محصورة في منطقة ضيقة من الجزر البريطانية^(١) . ونجم عن الاستعمار الإسباني في الدنيا الجديدة أن أصبحت الإسبانية لغة بلاد المكسيك وجزر الفيليبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ماعدا البرازيل؛ فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٧٠ مليوناً ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في الجنوب الغربي من أوروبا . ونجم عن الاستعمار البرتغالي في الدنيا الجديدة وأفريقيا والأوقيانوسية أن أصبحت البرتغالية لغة سكان البرازيل بأمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية بآفريقيا وجزر المحيط الهندي ؛ فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٥٠ مليوناً ينتمون إلى عدة أمم ، بعد أن كانت محصورة في منطقة ضيقة في بلاد البرتغال نفسها . وقد نجم عن استعمار الفرنسيين لبعض مناطق كندا أن أصبحت الفرنسية لغة لهذه المناطق .

٣ - أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعي في أوطانها الأصلية نفسها ، فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها في الزيادة المطردة ، وتنشط حركة العمران في بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى وتتعدد الأقاليم والمناطق ، فيتسع تبعاً

(١) يتكلم كذلك في اتحاد جنوب أفريقيا بلغة تسمى الأفريكانية ، وهي منحدره من الهولندية التي كان يتكلمها الهولنديون ، وقد كانوا أول من أقام في مستعمرة «الكاب» ، ومن اللغة الفرنسية التي كان يتحدث بها المهاجرون (الهوجنوت) الذين قدموا فيما بعد إلى الكاب . وتعد الأفريكانية إحدى اللغتين الرسميتين في الاتحاد . أما الثانية فهي اللغة الإنجليزية . ويتخاطب بالأفريكانية معظم أهل جنوب أفريقيا بطلاقة .

لذلك نطاق لغتها ومدى انتشارها : كما حدث لليابانية والفرنسية والإيطالية .
ففضل هذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية في اليابان نفسها ما يزيد على سبعين
مليوناً^(١) ؛ وبفضله كذلك ، مع مساعدة العاملين السابقين ، بلغ عدد الناطقين
بالفرنسية نحو ٥٠ مليوناً^(٢) وبالإيطالية نحو ٤٥ مليوناً^(٣) .

هذا ، ومتى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل
من العوامل السابق ذكرها ، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة
من الناس ، استحال عليها الاحتفاظ بوحدة الأولى أمداً طويلاً . فلا تلبث
أن تنشعب إلى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هذه اللهجات في سبيل تطورها
منهجاً يختلف عن منهج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينها وبين أخواتها
حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وبذلك يتولد عن اللغة
الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض في كثير
من الوجوه . ولكنها تظل مع ذلك متفقة في وجوه أخرى ، إذ يترك الأصل
الأول في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى .

(١) يدل آخر تعداد رسمي قبيل الحرب الأخيرة على أن عدد الشعب الياباني بلغ
٧٣،١١٤،٣٠٨ ، وأن عدد سكان الإمبراطورية اليابانية قد بلغ ١٠١،٢٦٦،١٠٥ .
(٢) منهم بفرنسا نحو ٤١ مليوناً والباقي ببلجيكا وسويسرا وكندا والمستعمرات
الفرنسية .

(٣) معظمهم بإيطاليا نفسها والباقي بسويسرا والمستعمرات الإيطالية .

وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة
باللغات المتفرعة منه ، ولكنه لا يلبث أن يتنحى عن ذلك بعد أن يكتمل نمو
هذه اللغات .

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر .
فاللغة الهندية - الأوروبية الأولى قد انشعبت في ضحى الإنسانية إلى مجموعات
كثيرة ، وكل مجموعة منها تفرعت إلى عدة طوائف ، وكل طائفة انقسمت إلى
شُعَب وكل شعبة إلى لغات ... وهكذا دواليك^(١) . ومثل هذا حدث للغة
السامية - الحامية الأولى^(٢) ولجميع الفصائل اللغوية الأخرى^(٣) .

وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيراً من آثار هذا القانون . فاللغة
اللاتينية ، وهى إحدى لغات الفرع الإيطالى المنشعب من الهندية - الأوروبية ،
قد أخذت هى نفسها ، فى أواخر العصور القديمة وفى العصور الوسطى ، تنشعب
إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هذه اللهجات تسلك فى
سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها ، حتى انفصلت عنها انفصالاً
تاماً ، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية

(١) انظر صفحات ١٨٠ - ١٨٤ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر صفحات ١٨٤ - ١٨٨ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة » .

(٣) انظر صفحات ١٨٨ - ١٩٧ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة » .

مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا ...) ؛ ولكنها لم تلبث أن تنحت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات .

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هذا القانون . فلا تنشار اللغة الإسبانية في مناطق واسعة مبعثرة ، ولا اختلاف الطوائف المتكلمة بها ، أخذت تفقد وحدتها ، فانشعبت عنها في أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة تختلف كل منها عن الإسبانية الأصلية اختلافاً غير يسير في كلماتها وأصواتها ؛ بل إن بعض هذه اللهجات أخذ يختلف عن الإسبانية الأصلية في القواعد نفسها ^(١) . ومثل هذا حدث بين البرتغالية في البرتغال والبرتغالية في البرازيل . فقد وصل الخلاف بينهما إلى القواعد نفسها ، بل إلى شكل الرسم كذلك ^(٢) . وهذا هو ما يحدث

(١) وقد ألف بعض العلماء كتباً مستقلة في قواعد بعض هذه اللهجات ككتاب الأستاذ لenz في قواعد لهجة شيلي .

(٢) جاء بجريدة الأهرام في عددها الصادر يوم ٢٩/٣/١٩٤٤ بصدد اتفاق هجائي لغوي بين البرتغال والبرازيل مايلي :

« تلقت وزارة الخارجية من معالي محمود نغرى باشا وزير مصر المفوض في إسبانيا والبرتغال تقريراً عن اتفاق هجائي لغوي عقد أخيراً بين الحكومتين البرتغالية والبرازيلية الغرض الأساسي منه تنظيم اللغة البرتغالية وتنقيحها ، وذلك بتوحيد شكلها الهجائي ونطق كلماتها . وكان الوصول إلى وضع هذا الاتفاق بفضل مساعي كبار الكتاب في البلدين . وهذا أول اتفاق من نوعه يعزز الفكرة التي ترمي إلى توحيد الشعوب التي تتكلم لغة واحدة . وختم الوزير المفوض تقريره بالإعراب عن أمنية هي أن تعمل البلاد العربية على تنظيم لغتنا وتوحيد اصطلاحاتها وتعميم نطقها بين مختلف الشعوب الناطقة بالضاد .

الآن للإنجليزية والألمانية . فقد أخذت الإنجليزية الولايات المتحدة بأمريكا تختلف عن الإنجليزية الجزر البريطانية في كثير من المفردات وأسايب النطق^(١)؛ وأخذت ألمانية سويسرا تبتعد عن أصلها ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية ، حتى توشك أن تكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان . وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المنشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها غريباً على بعض : فلهجة العراق في العصر الحاضر مثلاً لا يكاد يفهمها المصري . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوي بقاء العربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

(٢) العوامل المباشرة في تفرع اللغة

فالسبب الرئيسي في تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها . غير أن هذا السبب لا يؤدي إلى ذلك بشكل مباشر ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدي إلى هذه النتيجة . وباستقراء هذه العوامل في الماضي والحاضر يظهر أن أهمها يرجع إلى الطوائف الآتية :

(١) حتى إن الإنجليز ليسخروا من اللهجة الأمريكية ، كما يسخر الأمريكيون من لهجة الإنجليز ؛ ولا يكتم كل منهم سخريته هذه حتى في أخرج الأوقات وأدعاها إلى نسيان الفروق . يدل على ذلك ما جاء في نشرة وزعتها القيادة الأمريكية على قواتها الموجودة في بريطانيا في أثناء الحرب الأخيرة ، إذ تقول مخاطبة أفراد هذه القوات : « ولا تسخر باللهجة البريطانية لأن لهجتك قد تكون مثار سخركم ؛ ولكنهم أكثر أدبا من أن يظهروا لك ذلك » . (جريدة الأهرام بتاريخ ١٣/٧/١٩٤٢) .

١ — عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستقلال المناطق التي انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات . وذلك ان اتساع الدولة ، وكثرة المناطق التابعة لها ، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها... كل ذلك يؤدى غالباً إلى ضعف سلطانها المركزى وتفككها من الناحية السياسية ، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . وغنى عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدى إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢ — عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحي التفكير والوجدان . فمن الواضح أن الاختلاف في هذه الأمور يتردد صداه في أداة التعبير .

٣ — عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها ... وما إلى ذلك، وفيما يفصل كل منطقة منها عن غيرها من جبال وأمهار وبحار وبحيرات ... وهلم جرا . — فلا يخفى أن هذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدى، عاجلاً أو آجلاً ، إلى فروق وفواصل في اللغات .

٤ — عوامل شعبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق في الأجناس والفصائل الإنسانية التي ينتمون إليها والأصول التي انحدروا منها . فمن الواضح أن لهذه الفروق آثاراً بليغة في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

٥ — عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من

فروق في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق^(١). — فمن المحال، مع فروق كهذه ، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمداً طويلاً .

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هذه العوامل إلى جماعات متميزة ، واختلاف هذه الجماعات بعضها عن بعض في شؤونها السياسية والاجتماعية ، وفي خواصها الشعبية والجسمية والنفسية ، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية ، كل ذلك وما إليه يوجه اللغة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ، ويرسم لتطورها في النواحي الصوتية والدالية وغيرها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها ، فتتعدد مناهج التطور اللغوي حسب تعدد الجماعات ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هذا التعدد ، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها .

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين : إحداهما الناحية المتعلقة بالصوت ، فتختلف الأصوات (الحروف) التي تتألف منها الكلمة الواحدة ، وتختلف طريقة النطق بها تبعاً لاختلاف اللهجات ؛ والأخرى الناحية المتعلقة بدلالة المفردات ، فتختلف معاني بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها .

(١) ترجع هذه الفروق إلى عوامل كثيرة منها العاملان الجغرافي والشعبي المشار إليهما

أما القواعد *La Grammaire* سواء في ذلك ما يتعلق منها بالبنية (المورفولوجيا) ^(١) أو ما يتعلق منها بالتنظيم (السنتركس) ^(٢) ، فلا يناهها في المبدأ كثير من التغيير . وإليك مثلاً اللهجات العامية التي انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز واليمن ومصر وبلاد المغرب ...؛ فإنه لا يوجد بينها إلا فروق ضئيلة في نظام تكوين الجملة وتغيير البنية وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير ... وما إلى ذلك ؛ على حين أن مسافة الخلاف بينها في الناحيتين الصوتية والدلالية قد بلغت حداً جعل بعضها غريباً على بعض كما سبقت الإشارة إلى ذلك ^(٣) .

ولكن هذه الوحدة في القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفريق إلا لأجل معلوم ؛ ثم تهن قواها وتستسلم لهذه العوامل فيصيبها منها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل . وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات ، وتبدأ مرحلة تحولها إلى لغات مستقلة ، ولا تنفك تذهب حثيثاً في هذا الطريق حتى تبلغ غايته . غير أنه يبقى بها ، على الرغم من هذا كله ، وجوه شبه قريبة أو بعيدة في أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة . وإليك مثلاً طوائف اللغات الهندية - الأوربية : فعلى الرغم من استحكام ما بينها من حلقات الخلاف ، فإن الأصل الأول قد ترك في كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة وتشهد

(١) انظر صفحة ٧ من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر صفحتي ٨٤٧ ، من الطبعة الثالثة لكتابنا « علم اللغة » .

(٣) انظر ص ١٣١ .

بتفرعها عن أرومة واحدة .

ومن هذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها . فما لم تصرعها لغة أخرى على الوجوه التي تقدم شرحها في الفصل السابق ، لا يتطرق إليها الفناء . وخلودها هذا يبدو في أحد مظهرين : فأحيانا تحتفظ بوحدها ، وذلك إذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة وفتة قليلة ؛ وأحيانا تنسحب إلى لهجات ولغات ، وذلك إذا انتشرت في مساحات واسعة من الأرض ، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس .

(٣) اللهجات المحلية ، وصراعا بعضها مع بعض^(١)

يترتب على القانون السابق أن تختلف اللهجات في الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به من خصائص . وقد جرت عادة علماء اللغة أن يطلقوا على هذا النوع من اللهجات اسم اللهجات المحلية *Dialects Locaux* . وتختلف هذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافا كبيرا في المساحة التي يشغلها كل منها : فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة ؛ ومنها ما تضيق منطقتها فلا تشمل إلا بضعة قرى متقاربة ؛ ومنها ما يكون وسطا بين هذا وذاك . وكثيراً ما تختلف هذه

(١) عرضنا هنا لموضوع الصراع بين لهجات اللغة الواحدة لعلاقته الوثيقة بموضوع هذا الفصل وهو التفرع . أما الصراع بين اللغات المختلفة الذي كان موضوع الفصل السابق فهو مستقل عن موضوع التفرع (انظر التعليق المدون بصفحة ٩٥) .

المناطق اللغوية في حدودها عن المناطق المصطلح عليها في التقسيم الإداري والسياسي . فقد تقسم القرى التي تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين مديرتين أو أكثر ؛ وقد يجتمع في مديرية واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية . ولدينا نحن المصريين على ذلك شواهد كثيرة في مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحري .

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها ، فلا تدخر وسعا في محاربة عوامل الابتداء والتغيير في داخل منطقتها ، ولا تألو جهداً في درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات .

أما محاربة عوامل الابتداء في داخل منطقتها فتم بفضل العلاقات الوثيقة التي تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم بيئتهم ومجتمعهم . وذلك أنه بقوة هذه العلاقات يقوى الضمير الجمعي ، وتؤكد سيطرة النظم الاجتماعية ، ويعظم نفوذها ، ويشدد بطشها بالمعتدين . فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوي تلقى في مجتمع قوى كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها في مهدها . وبذلك تبقى اللهجة ماعسى أن يوجه إليها في داخل منطقتها من محاولات الابتداء وعوامل التغيير .

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التي تربط أهلها بجواريرهم ، وقلة فرص احتكاكهم بهم ، وما يدونه في العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال . - ويظهر هذا على الأخص في البيئات الزراعية التي تقل فيها وسائل المواصلات ، وتضعف حركة انتقال الأفراد ، ويكاد

سكان كل منطقة يعيشون في معزل عن سكان المناطق الأخرى . - حقاً إن تزوج بعض الرجال في هذه البيئات إلى نساء من غير مناطقهم ، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها ، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه . ولكن قلة عدد من ينفذ من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها ، واثمهم في الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة ، ودخولهم البلد فرادى وفي أزمنة متباعدة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته ، وما يديه أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخرية وازدراء ، وصعوبة فهم حديثهم أحياناً... كل ذلك وما إليه لا يحول دون تأثر لهجة البلد بلهجاتهم فحسب ، بل من شأنه كذلك أن يحملهم على محاكاة لسان المنطقة التي يقيمون فيها . - وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التي يكثر في العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل في حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، واثمهم إلى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة إقامتهم ، لأن معظمهم يفد إلى البلد في شئون لا تقتضيه إلا إقامة ساعات أو أيام .

غير أنه قديتأح أحياناً للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى .
وحيث تشبك المهجتان في صراع أهلى لا يختلف كثيراً في مظاهره وطرقه

عن الصراع الذى ينشب بين لغتين مختلفتين والذى عالجناه فى الفصل السابق .
وينتهى هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين : فأحيانا لا تكاد إحدى اللهجتين
تؤثر فى الأخرى ، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين فى الثقافة والقوة والنفوذ؛
وأحيانا تتأثر إحداهما بالأخرى ، وذلك إذا كانت أقل منها فى مظهر من المظاهر
السابقة .

وتختلف درجة التأثير باختلاف الأحوال : فأحيانا يكون يسيراً لا ينال
إلا بعض مظاهر ؛ وأحيانا يكون عميقاً ينتهى بالقضاء على اللهجة المغلوبة .

فيكون يسيراً إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى الثقافة
والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا فى تأثر لهجة القرى بـلهجة المدينة التى تجاورها
أو يكون بها مقر المديرية أو المركز ، أو فى تأثرها بـلهجة البلد الذى يتخذ
مقراً لنقطة البوليس أو للعمدية أو التى يقام فيها السوق الأسبوعى ... وهلم جرا .
ففى هذه الحالات وما إليها يقف التأثير عند حد اقتباس الكلمات والتراكيب
وطرق استخدام المفردات فى معانيها الحقيقية والمجازية ... وما إلى ذلك . أما
الأساليب الصوتية وطريقة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثير
والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة مديرية من مديريات القطر
المصرى قد تقتبس عنها كثيراً من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها ... ؛
ولكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات وطريقة النطق بالكلمات .
فالقرى المصرية التى تقلب فى لهجاتها القاف العربية جيماً غير معطشة (جلنا = قلنا)
قد تجاور مدينة تختلف عنها فى هذا الأسلوب الصوتى (بأن تقلب فيها مثلاً

القاف العربية همزة : ألنا = قلنا) ، فتقتبس عنها كثيرا من مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وأساليبها ؛ ولكن تظل طريقها الصوتية خيال القاف العربية بمأمن من التأثير بطريقة المدينة ، اللهم إلا في الكلمات التي تقتبسها منها .

أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين في ناحية من النواحي السابق ذكرها ، فإن التأثير يكون عميقاً لدرجة تصل أحيانا إلى القضاء على اللهجة المغلوبة . ويحدث هذا في حالتين :

(الحالة الأولى) أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى . ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة أن لا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآدابا . والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ القديم والحديث ؛ فلهجة باريس ، حيث مقر الحكومة والسلطان ، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التي خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك فعلت لهجة لندن مع عدد كبير من اللهجات الإنجليزية الأخرى ؛ ولهجة مدريد مع اللهجات الإسبانية ؛ ولهجة روما في العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ؛ ولهجة قریش قبل الإسلام مع اللهجات المضرية الأخرى ... وهلم جرا^(١) .

(١) ضربنا بعض هذه الأمثلة في الفصل السابق بصدد صراع اللغات بعضها مع بعض . وذلك لأنها تصلح أمثلة للأمرين معا . فاللغات المضرية مثلا يصح اعتبار كل منها لغة مستقلة ، ويصح النظر إليها على أنها لهجات محلية قد انشعبت عن لغة واحدة . وكذلك لهجة روما قديما مع اللهجات الإيطالية ... وهلم جرا .

(الحالة الثانية) أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى في ثقافتها وحضارتها وآداب لغتها . ففي هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان سياسى على المنطقة الأخرى . ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين^(١) ؛ وأخذت التوسكانية Toscan بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة ، وقبل أن يظهر سلطان روما^(٢) ؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبى لا يذكر بجانبه إنتاج أخواتها التى اشتبكت معها فى هذا الصراع . وفى كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع فى مدته وعنفه تبعاً لمبلغ قرب اللهجتين إحداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة . فيطول أمده ويشدد عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة . فلهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب على كثير من اللهجات الإسبانية الأخرى ، ولا تزال إلى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها ، وذلك لتفشى الجهل والأمية بين الناطقين بهذه اللهجات . - ولهذا السبب نفسه لم يتم بعد للهجة القاهرة التغلب على لهجات المناطق المصرية المجاورة لها . - وفى القسم الفرنسى اللغة من سويسرا لا تزال اللهجات المحلية تقاوم الفرنسية الفصحى

(١) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

(٢) على أن روما لم تكن مهد الإيطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

في المناطق الكاثوليكية (فاليه ، فريبورج... Valais, Fribourg) ، على حين أنه قد تم انقراض هذه اللهجات أو كاد في المناطق البروتستانتية (نيوشاتل ، جنيف ...) ؛ وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلماء من المناطق الكاثوليكية وأقدم منها عهداً بالمدارس . ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللهجات التي كانت منتشرة في إقليمى السين والوار ، لقلة وجوه الخلف بينه وبينها ؛ على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوب فرنسا ولا يزال يلقى منها مقاومة عنيفة ، لكثرة الفروق التي تفصلها عنه .

هذا ، ويسير تغلب لهجة على أخرى على السنن نفسه الذى يسير عليه تغلب اللغات المختلفة بعضها على بعض والذى أشرنا إليه في الفصل السابق ^(١) . ففي المرحلة الأولى تنذف اللهجة الغالبة اللهجة الأخرى بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك منها الأصل وتجرده من كثير من مقوماته . ولكن اللهجة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بمخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات . فينطق أهلها بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ، حتى إنهم ليستبدلون في الكلمات الدخيلة بالحروف التي لا يوجد لها نظير لديهم حروفاً قريبة منها من حروف لهجتهم . - وفي المرحلة التالية تتسرب إلى اللهجة المغلوبة أصوات اللهجة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات ؛ فينطق أهل اللهجة المغلوبة بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من المخارج نفسها وبالطريقة نفسها التي يسير عليها

(١) انظر آخر صفحة ١٠٣ وصفحة ١٠٤ .

النطق في اللهجة الغالبة ، فيزداد بذلك انحلال اللهجة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة في الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (المورفولوجيا والسنتكس) وفي مقاومة قواعد اللهجة الغالبة ، إن كانت تختلف عنها في القواعد ^(١) . فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . وفي المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئا فشيئا ، فتأخذ قواعد اللهجة الغالبة في الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر فيتم بذلك الإجهاز على اللهجة المغلوبة . غير أنها كثيراً ما تترك في ألسنة أهلها بعض آثار من قواعدها القديمة . فكثير من سكان جنوب فرنسا لا يزالون يؤلفون عباراتهم في صور تختلف عن قواعد الفرنسية الفصحى ، ولكنها تتفق مع قواعد لهجاتهم المندثرة .

(٤) نشأة لغة الدولة أو لغة الكتابة

واللهجة التي يتاح لها التغلب في أمة ما على بقية أخواتها أو على معظمها تصبح ، عاجلاً أو آجلاً ، « لغة الدولة » أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » أو « اللغة الفصحى » أو « لغة الكتابة » . فتعلم وحدها في مدارس الدولة ، ويجرى بها تدريس المواد المختلفة في معاهدها وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات ، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها ، وتستخدم في مختلف نواحي

(١) لا يكون الاختلاف في العادة كبيراً في القواعد بين اللهجات المتشعبة من لغة واحدة قبل أن يستقل بعضها عن بعض وتصبح لغات منفصلة كما سبقت الإشارة إلى ذلك بصفحة ١٣٤ .

الوعظ والخطابة ، وتلقى بها الأوامر ويجرى بها التخاطب في الجيش... وهلم جرا^(١) . فقد ترتب على تغلب لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت هي « لغة الدولة » بفرنسا ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بالجلترا ومدير يد إسبانيا واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بإيطاليا؛ فقد أصبحت هذه اللهجات هي اللغات الرسمية ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية .

وتسلك لغات الكتابة في تطورها طريقاً خاصة تختلف عن الطريق التي تسلكها لغات المحادثة ، كما سيظهر ذلك في الفقرة التالية . ولذلك نرى أن لغة الكتابة مع اتفاقها في المبدأ مع لهجة المحادثة الغالبة ، لا تلبث فيما بعد أن تختلف عنها في كثير من الشؤون ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما حتى تستقل كل منهما عن الأخرى . فلغة الكتابة بفرنسا تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافاً غير يسير . وكذلك الشأن في إنجلترا : فقد بعدت اللهجة الدارجة لأهل لندن الآن بعداً كبيراً عن اللغة الفصحى ، حتى إن بعض العلماء قد ألف فيها معجمات خاصة^(٢) .

(١) قد لا يكون للأمة أى لغة قومية مستقلة ، كما هو شأن النمسا ، فإن لغتها هي الألمانية . وقد يكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة ، كما هو شأن سويسرا ، فإن بها ثلاث لغات رسمية : الألمانية والفرنسية والإيطالية . وقد تكون اللغة الرسمية ولغة الكتابة في الأمة هي اللغة القديمة التي انشبت منها لهجتها ، كما كان شأن اللاتينية بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال ورومانيا ، وكما هو شأن اللغة العربية الآن بمصر وبلاد العرب وشمال افريقية .

(٢) من هؤلاء العلامة أريك پارتروج (انظر كلمة عن معجمه في اللغة الدارجة لأهل لندن في جريدة المصرى عدد ٢١ - ٥ - ٥٠) .

(٥) اختلاف نواحي اللغة الفصحى باختلاف فنون القول

لغة الآداب وخصائصها وأنواعها : الشعر والنثر ،

وظيفتا اللغة : الدلالة والإيحاء

كما تنسحب لغة المحادثة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ، تنسحب كذلك لغة الكتابة أو اللغة الفصحى إلى شعب مختلفة تبعاً لاختلاف فنون القول التي تستخدم فيها ، وما يمتاز به كل فن منها : الشعر ؛ النثر الأدبي ؛ الخطابة ؛ القصة ؛ الرسائل ؛ التاريخ ؛ القانون ؛ تدوين العلوم ... الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه في طبيعته وأغراضه البيانية ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلتها بكل من الناحيتين الوجدانية والإدراكية ، ومدى إقبال الجمهور عليه وأثره في نفسه وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يخترعونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ... وهم جرا . وغنى عن البيان أن الاختلاف في هذه الأمور وما إليها يؤدي حتماً إلى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عما عداه في مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره ، وطريقة علاجه للحقائق ... وما إلى ذلك . وقد تتسع مسافة الخلف بين هذه الفنون فتصبح لغة كل منها أشبه شيء بلغة مستقلة . وهذا هو المشاهد الآن في كثير من اللغات الراقية . فبمجرد سماع عبارة في اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية

أو غيرها من اللغات الراقية يستطيع بسهولة معرفة الفن الذى تتصل به : فعلى ضوء مفرداتها وأسلوبها ونظمها وتراكيبها وطريقة إبانها عن الحقائق ... يستطيع بسهولة الحكم إن كانت شعراً أم خطابة أم كتابة رسائل أم مقالا صحفيا أم بحثا علميا ... وهلم جرا .

ومن أهم شعب اللغة الفصحى مايسمونه لغة الأدب *Langue Littéraire* وهى التى تستخدم فى الأدب شعره ونثره . وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها بأن مايتخذها غيرها وسيلة تتخذه هى غاية ، أو توجه إليه على الأقل أكبر قسط من العناية . ففي جميع الشعب الأخرى (لغة العلوم ، لغة الفلسفة ، لغة التاريخ ...) يتخذ الكلام مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما فى هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضاً فى ذاته ويوجه إلى تجويده أكبر قسط من الجهود . فأهم مايقام له وزن فى لغة الأدب هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، ورصانة اللفظ ، وفصاحة الكلام ، وبلاغة التعبير ... وهلم جرا .

وتنقسم الآداب نفسها إلى فنون كثيرة ، أهمها الشعر وملحقاته ، والنثر الأدبى ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هذه الفنون عن إخوته فى طبيعته ، وموضوعاته ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والإدراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يناله من تطور وتجديد ، وما يرمى إليه من أغراض ... الخ . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها خصائصه اللغوية

ومميزاته في النظم والوزن ، والتأليف الموسيقي ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل وطريقة الاستدلال ، وشرح الحقائق ، ومنحى الأسلوب .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن غيره أنه يتجه أولاً وبالذات إلى مخاطبة الوجدان والعواطف لا الإدراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسي هو الإيحاء بالحقائق والإحساسات لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان . ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل إلى الإبهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر في عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات في غير ما وضعت له عن طريق الكناية والمجاز ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق وكراهة التعمق في الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات في أوزان خاصة فليس شرطاً أساسياً في الشعر : فإذا توافرت الصفات السابقة في كلام منشور اعتبر شعراً في الاصطلاح الأدبي ؛ وإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق في توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الإيحاء ، فإنه لا يعد شعراً على الرغم من أوزانه وقوافيه .

(٦) اختلاف اللهجات في البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفئاتهم

« اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux

تنشعب أحياناً لغة المحادثة في البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم : فيكون ثمة مثلاً لهجة للطبقة الأريستوقراطية ، وأخرى للجنود ، وثالثة للبحارة ، ورابعة للرياضيين ، وخامسة

للبرادين ، وسادسة للنجارين ... وهلم جرا . ويطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا النوع من اللهجات اسم «اللهجات الاجتماعية» *Dialectes Sociaux* تمييزاً لها عن «اللهجات المحلية» *Dialectes Locaux* التي كانت موضوع حديثنا في الفقرات الثلاث الأولى من هذا الفصل^(١) .

ويؤدي إلى نشأة هذه اللهجات ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق في الثقافة والتربية ، ومناحي التفكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تراوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التي تتركها كل وظيفة ومهنة في عقلية المستعملين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التي يكثر ورودها في حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات في غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم ... وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة في كل طبقة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها ؛ فلا تلبث أن تنشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها في المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ ... وما إلى ذلك . وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً في هذا الطريق ، فيشتد انحرافها عن الأصل

(١) يرجع الفضل في هاتين التسميتين إلى العلامة پول پاسي Paul Passy .

الذي انشعبت منه ، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها حتى تكاد تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها : كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجرمين وبعض طبقات العمال *Argots des voleurs, des malfaiteurs, et des ouvriers.*

ويزداد في العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات ، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظمه وقوانينه . ولذلك كانت في فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال ، واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبان ، ولهجات المجرمين واللصوص ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافاً عن الأصل الذي انشعبت منه ، وبعداً عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية . وكذلك الشأن في إنجلترا ، فلهجات اللصوص وقطاع الطريق والمجرمين الإنجليز من أشد اللهجات بعداً عن اللغة الأصلية وعن المستوى العام للهجات الاجتماعية الإنجليزية^(١) .

(١) « أخرج الأستاذ أريك بارتروج أستاذ اللغات الإنجليزية معجماً للغة الرعاع ، قضى في وضعه خمس سنوات . ويقع في ثمانمائة صفحة احتوت على جميع الاصطلاحات التي يستعملها اللصوص وقطاع الطريق والمجرمون الإنجليز من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا . وقد استعان الأستاذ بارتروج لإخراج مؤلفه بالبحث في ملفات القضايا الجنائية من عام ١٧٢٩ حتى الآن ، كما تحدث إلى كثير من قس السجون وتردد على محال اجتماعات المجرمين » (انظر جريدة المصري عدد ٢١ - ٥ - ١٩٥٠ تحت عنوان : « قاموس لغة المجرمين من الإنجليز ») .

ولاتظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة ، بل تسير في السبيل الارتقائي نفسه الذي تسير فيه اللهجات المحلية ؛ فيتسع نطاقها باتساع شئون الناطقين بها ، ومبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من مواطنيهم ، وما يخترعونه من مصطلحات ويتواضعون عليه من عبارات ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ، وتختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها . فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد الحرب العظمى اختلافاً بينا عما كانت عليه قبل ذلك ، وتختلف في القرن العشرين اختلافاً كبيراً عما كانت عليه مثلاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التي كتبها بتلك اللهجات في القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسي فرنسوا فيلون François Villon^(١) لم يُستطع بعد في العصر الحاضر حل رموزها وفهم مدلولاتها .

وتؤثر اللهجات الاجتماعية في لغة المحادثة العادية تأثيراً كبيراً ؛ فتستعير منها هذه اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات ، وبخاصة المفردات التي خصص مدلولها العام واصطلح على إطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس في العصر الحاضر قد دخل فيها عن هذا

(١) شاعر فرنسي ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفي سنة ١٤٨٩ وقد عاش في وسط اللصوص والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر مؤلفاته « العهد الصغير » و « العهد الكبير » Petit Testament; Grand Testament .

الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين . وكذلك الشأن في لغة الإنجليز : فقد أثبت الأستاذ پارتروج أن كثيراً من الاصطلاحات الحديثة في اللغة الإنجليزية التي يظن الإنجليز أنها مأخوذة من اللغة الأمريكية العامة مشتقة من لغة المجرمين الإنجليز (١) .

ولا تتميز في العادة اللهجات الاجتماعية بعضها عن بعض تميزاً واضحاً إلا في المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس ، وتنشط الحركة الاقتصادية ، وتنوع الوظائف وتعدد المهن ، ويشد النزاع بين الطبقات : كنيويورك ولندن وباريس في العصر الحاضر ، وكبغداد في العصر العباسي .

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية ما يسمونه « باللهجات الحرفية » ؛ وهي اللهجات التي يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرف المختلفة كالبرادين والنجارين والنقاشين والصيادين والبحارة ... وهلم جرا . وتتميز اللهجات الحرفية بعضها من بعض تميزاً كبيراً في المناطق التي يسود فيها « نظام الطوائف » Regime des Castes حيث تختص كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وفقاً على أفرادها لا يجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها ، كما لا يجوز لغيرهم الاشتغال بها : كما هو الحال في كثير من بلاد الهند . على حين أنه في الأمم الحديثة التي قضى فيها على نظام الطوائف ، فأصبحت الحرف حفا مشاعاً بين جميع أفراد السكان ، يزاول كل منهم المهنة التي تروقه ، ويتنقل إذا شاء من مهنة إلى

(١) انظر عدد جريدة المصري المشار إليه في التعليق المدون في الصفحة السابقة .

أخرى ، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها ، في هذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها في بعض ، ويتأثر بعضها ببعض ، وتقل بينها الفروق ، وتضعف المميزات (١) .

هذا ، وقد خيل إلى بعض علماء « الإيتوجرافيا » أن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها ، بل تخلق خلقا ، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة ، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها أربابا . وقد تابعهم في هذا الرأي بعض القدامى من علماء اللغة ؛ ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم .

(١) للهجات الاجتماعية مظاهر كثيرة في مصر في العصر الحاضر نفسه . ومن أوضح مظاهرها لغة الصيادين وأبناء البحار : فهي تختلف اختلافا كبيرا عن اللغة العادية في كثير من مفرداتها وتراكيبها . - ومن بين مفرداتها ما هو من أصل عربي وإن اختلف مدلوله أحيانا عن مدلوله في الفصحى : ومن ذلك « ينصاح » بمعنى يهلك ؛ و « القرية » وهي خشبة الشراع الأكبر ؛ و « البومة » وهي الخشبة المربوط بها القلع ؛ و « الغليني » وهو الجو الناعس الحنون ؛ و « المرير » وهو الريح من الجنوب ؛ و « اللبش » وهو الريح من الجنوب الغربي ؛ و « الشلوق » وهو الريح من الجنوب الشرقي ؛ و « القلقطة » وهي عملية رتق السفينة بالشحم وحبال الكتان ؛ و « الشاغل » و « العويل » و « الإبلير » و « الفاية » وهي أسماء لحبال مختلفة يربط بها الشراع ؛ و « ضرب بلطة » أي حاد عن الجادة فانهرف نحو اليمين أو الشمال ليتجه مع الريح أو لغير اتجاه السفينة . - ومن بين مفرداتها ما هو غير عربي الأصل : ومن ذلك « الأرطوم » (من أصل فرنسي ومعناها شراع صغير) ؛ و « البانكا » (من أصل إيطالي وهو مقعد المجذفين) ؛ و « الهلب » (من أصل إنجليزي ومعناها المرساة) ؛ و « الشابورة » (من أصل ألماني وهي خشبة في مقدمة السفينة) ؛ و « السكارج » (من أصل فارسي وهي حلقات الدفة) ؛ و « البروة » (من أصل إسباني وهي صدر السفينة) . - انظر في ذلك مقالا تحت عنوان : « لغة الغموض والألغاز التي يتفاهم بها الصيادون » نشره في عدد جريدة المصري الصادرة في ٢٥ - ٥ - ١٩٥٠ الأستاذ إبراهيم محمد الفحام . وكثير من الكلمات السابقة قد قمت أنا بتسجيله من لغة البحارة من أهل رشيد .

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية ؛ فعهدنا بهذه النظم أمها لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقا ؛ بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن معظم هذه اللهجات منتشرة بين طبقات فقيرة جاهلة منحلة المدارك ضعيفة التفكير ، لا يتاح لمثلها أن تنشئ إنشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لا يتاح لها مجرد التفكير فى مثل هذا المشروع الخطير : طبقات المتسولين واللصوص والحدادين والصيادين ... وهلم جرا .

والحق أن « اللهجات الاجتماعية » لا تختلف فى نشأتها عن « اللهجات المحلية » التى تكلمنا عنها فى الفقرات الثلاث الأولى من هذا الفصل . فكلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛ وكلاهما تلقائى النشأة ينبعث عن مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسى لنشأة « اللهجات المحلية » يرجع إلى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ؛ على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات الاجتماعية » يرجع إلى اختلاف طبقات الناس فى الإقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها من شئون ويفصلها بعضها عن بعض من مميزات فى شتى مظاهر الحياة .

غير أننا قد نعتز أحيانا فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقا فى لغة البلد ولا اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصل اختراعا من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق

التقليد . ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون مقصورة على لهجات الطبقات الراقية ، ولا تبدو إلا في عدد قليل من الكلمات ، أما معظم المفردات فترجع أصولها إلى كلمات منحدرة من لغة البلد أو مقتبسة من بعض لغات أجنبية . غير أن الغالب أن ينالها ، مع تقادم الزمن ، كثير من التحريف والتغيير ، فتبعد بعداً كبيراً عن الأصل الذي أخذت منه . وقد تصل في انحرافها هذا إلى درجة يخيل معها للباحث السطحي أنها ابتدعت بالتواضع والارتجال . ولعل هذا هو ما حدا ببعض العلماء على الظن بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع^(١) .

(٧) اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء

قد يحدث في بعض الشعوب التي يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء ، أو يعيش فيها كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد اجتماعية ، أن تختلف لهجة الرجال عن لهجة النساء اختلافاً يسيراً أو كبيراً . وتكثر مظاهر هذا الاختلاف اللغوي كما استحكمت حلقات الانفصال بين الجنسين ؛ حتى إنه لينشأ أحياناً من جراء ذلك لكل منهما لهجة تختلف

(١) يرجع الفضل في دراسة اللهجات الاجتماعية إلى طائفة من علماء اللغة وعلماء الاجتماع . ومن أشهر من عنى بدراستها من علماء الاجتماع العلامة فان جينيب V. Van. Gennep : Essai d'une théorie des Langues Speciales (Revue des Etudes ethnographiques et Sociologiques, juin-juillet 1908) .

اختلافا بينا عن لهجة الآخر ، أو تشتمل لهجة كل منهما على مفردات وجمل كثيرة لاتستخدم في اللهجة الأخرى . وقد لوحظ ذلك في بعض الشعوب البدائية على الأخص^(١) .

ويخف هذا الاختلاف اللغوي كلما خفت قيود الاختلاط بين الجنسين ؛ فتقتصر مظاهره على بعض فروق يسيرة في الأصوات والمفردات والجمل والأساليب ، كما هو مشاهد في كثير من المناطق المصرية في العصر الحاضر . وليست هذه اللهجات في الواقع إلا نوعا من أنواع «اللهجات الاجتماعية» التي تقدم الكلام عنها في الفقرة السابقة . فمعظم ماقلناه هناك في نشأة اللهجات الاجتماعية وعواملها وتطورها ... وما إلى ذلك يصدق على هذا النوع .

(1) V. Durkheim : « La Prohibition de l'Inceste et ses origines » dans : « L'Année Sociologique » T. I. P. 49.

(٨) خلاصة هذا الفصل

هذا، والنتائج التي تهدينا إليها دراستنا لهذا الموضوع هي النتائج نفسها التي انتهت إليها دراستنا لموضوعي الفصلين الأول والثاني :

١ — فقد ظهر لنا مما تقدم في هذا الفصل أن الطريق التي يسير فيها تفرع اللغة الواحدة إلى عدة لهجات ، وخطط التي يهيجها ، والمراحل التي تقطعها كل لهجة من اللهجات المتفرعة في سبيل تطورها حتى تصبح لغة مستقلة ، والوجوه التي تختلف فيها هذه اللهجات بعضها عن بعض ، وما يتركه الأصل الأول في كل منها من آثار تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى ، والحالات التي تشترك فيها اللغة الأصلية مع اللهجة المتفرعة في أداء وظائف التعبير ، إذ تستخدم الأولى في شئون الكتابة والآداب وتستأثر الثانية بشئون التخاطب العادى ، والحالات التي تستغنى فيها اللهجة المتفرعة استغناء تاما عن اللهجة الأصلية ، فتستخدم في الشئون الأدبية كما تستخدم في شئون المحادثة ، وما يحدث بين « اللهجات المحلية » من صراع ، وما تتخذه كل لهجة منها في أثناء ذلك من وسائل المقاومة وخطط الهجوم ، والمدة التي يستغرقها هذا الصراع ، والنتائج التي ينتهي إليها ، ومبلغ تأثر كلتا اللهجتين المتصارعتين بالأخرى ، والنواحي التي يبدو فيها هذا التأثر ، وما ينال عناصر كليهما من تغير وانحراف ، والخطوات التي تسير بها اللهجة الغالبة في سبيل انتصارها واللهجة المغلوبة نحو انقراضها ، وموقف كل منهما حيال الأخرى في حالة

تكافؤ القوى، والمكانة التي تحتلها اللهجة المتغلبة والشئون التي تستأثر بها إذ تصبح « لغة الدولة » أو « اللغة القومية » ، وما يعتورها من تطور واختلاف في المناحي تبعاً لاختلاف فنون القول ، ونشأة « اللهجات الاجتماعية » في البلد الواحد ، ومبلغ انحراف هذه اللهجات بعضها عن بعض ، ومراحل التطور التي تسلكها كل لهجة منها ، والآثار المتبادلة بينها وبين لغة المحادثة العادية، واختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء... ، ظهر لنا مما سبق أن كل أولئك وما إليه لايجرى تبعاً للأهواء والمصادفات أو وفقاً لإرادة الأفراد ؛ وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، محققة الآثار ، لا يستطيع أحد سبيلاً إلى وقفها أو تغييرها تؤدى إليه .

فليس في قدرة الأفراد أن يحولوا دون انشعاب لغة ما إلى عدة لهجات متى توافرت شروط هذا الانشعاب ، ولا أن يتحكموا في أية ناحية من نواحيه فيسيروا بها في طريق غير الطريق التي تقررها قوانين هذه الناحية . فهما أجهدا أنفسهم في هذا السبيل، ومهما اتخذوا من وسائل، فلن يغيروا شروى نقيير مما تقضى به سنن التفرع اللغوى .

وإليك مثلاً اللغة العربية : فعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت في سبيل صيانتها، والاحتفاظ بوحدتها ، ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ؛ وعلى الرغم من الأسوار المنيعه التي أقامها لحمايتها العلماء والأدباء إذ أنشئوا علوم النحو والصرف والبيان والمعاني والبديع والاشتقاق والقراءات وأدب اللغة ... ووضعوها لمتنها مئات المعجمات ، فوصلوا بها في تحديد الألفاظ والدلالة ،

وضبط الأصوات والقواعد، وتسجيل الآثار الأدبية ، إلى درجة منقطعة النظير؛ وعلى الرغم من أن هذه الجهود كانت مؤيدة بالعقيدة ومركزة على دعامة من الدين ؛ على الرغم من هذا كله فإن اللغة العربية لم تلبث أن حطمت هذه الأغلال وتسلفت هذه الأسوار ، وأفلتت من جميع هذه القيود ، وسارت في السبيل التي أرادت على السير فيها سنن التفرع اللغوى ، فانشعبت في ميادين المحادثة إلى عدة لهجات ، وأخذت مسافة الخلف تتسع شيئاً فشيئاً بينها وبين هذه اللهجات حتى بعدت عنها بعداً كبيراً في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات والأساليب ، بل أخذت مسافة الخلف تتسع شيئاً فشيئاً بين هذه اللهجات نفسها حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض .

ومن هذا يستبين كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (إيسبرنتو Esperanto) يتحدث بها الناس في مختلف الأمم والعصور . وذلك أن هذه اللغة الصناعية ، على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها^(١) ، لا تلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التي تخضع لها اللغات الطبيعية والتي خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان . فإدام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين في أصولهم الشعبية ، وفي التكوين الطبيعي لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفي الظروف الجغرافية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفي قواهم الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سنة الطبيعة تقتضى أن يختلف

(١) هذه الأمنية ، وإن كانت ممكنة نظرياً ، يحول دون تحقيقها عملياً صعوبات جمة .

كل جيل عن الجيل السابق له في كل هذه الأمور ، فلا بد أن تختلف هذه اللغة في كلماتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها ... باختلاف العصور وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتنقسم إلى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاما ، وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها ، شأنها في ذلك شأن غيرها من اللغات . وهكذا لا يمضي زمن قصير أطويل حتى يتولد من هذا العلاج المشكلة نفسها التي يحاولون القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ... » ؛ « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » .

٢ — وقد ظهر مما تقدم في هذا الفصل أن أهم الأسباب التي تؤدي إلى التفرع اللغوي وأهم العوامل التي تؤثر في سيره ونتائجه ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة . فالفتح ، والاستعمار ، والهجرة ، ونشاط حركة العمران في البلاد ، وضعف السلطان المركزي الذي يسيطر على أجزاء المملكة الواحدة ، وانحلال الروابط السياسية التي كانت تجمعها ، واختلاف المناطق بعضها عن بعض في النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ونواحي التفكير والوجدان والقوة والنفوذ ومظاهر الحضارة والآداب ، واختلاف الطبقات التي تسكن بلدًا واحدًا بعضها عن بعض في المهنة والثقافة والتربية ومستوى المعيشة وحياة الأسرة ،

وما يكتنف كل منطقة من مناطق المملكة وكل طبقة من طبقات سكانها في حياتها من ظروف ، وانسجام بعض الطبقات مع المجتمع العام وقيام بعضها على أساس العزلة عنه أو الخروج على نظمه وقوانينه ، ومبلغ اختلاط الرجال بالنساء في شعب ما أو معيشة كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر ، والاحتكاك بين الناطقين بلهجات ترجع إلى أصل واحد ... وما إلى ذلك من الأمور التي تقدم أنها تؤدي إلى انشعاب اللغة الواحدة إلى «لهجات محلية» و«لهجات اجتماعية» وتؤثر في طريقة هذا الانشعاب ومناهجه ، وفي صراع اللهجات بعضها مع بعض ، وتتأجج هذا الصراع ، وفي تطور هذه اللهجات واختلافها بعضها عن بعض ... كل ذلك مرده إلى ظواهر الاجتماع وشئون العمران .

٣ — غير أنه قد ظهر لنا كذلك أن بعض الأسباب التي تؤدي إلى هذا التفرع وبعض العوامل التي تؤثر في سيره وتتأججه ترجع إلى أمور غير اجتماعية . وذلك كالحواجز الجغرافية التي تفصل المناطق بعضها عن بعض ، وكنحواس الجسمانية الوراثية التي يمتاز بها سكان كل منطقة في المملكة الواحدة عن سكان المناطق الأخرى ، وخاصة ما يتصل منها بأعضاء النطق .

حقاً إن آثار هذه العوامل في التفرع اللغوي ليست شيئاً مذكوراً بجانب آثار العوامل الاجتماعية ، كما ظهر ذلك من دراستنا السابقة . ولكن مهما يكن لهذه الآثار من أهمية نسبية ، فإن عليها تتوقف نواح كثيرة في الانشعاب اللغوي وفي تتأججه .

وحتماً ان بعضها لا يؤثر إلا عن طريق الظواهر الاجتماعية . فالخواجز
الجغرافية مثلاً لا تؤثر في التفرع اللغوى إلا عن طريق ما تحدثه بين سكان المناطق
من فواصل وفروق في شئون الاجتماع . ولكن لا يصح إغفال أثرها مهما كان
هذا الأثر غير مباشر .

خاتمة

إن الفقرات التي ختمت بها فصول الكتاب الثلاثة^(١) لتغنيينا عن الإطناب في هذه الخاتمة، وتبين بحجة قاطعة صحة الحتمائق التي قصدنا إلى إبرازها في مؤلفنا هذا . فإذا ضممننا هذه الفقرات بعضها إلى بعض، ولاحظنا أنها خلاصة لدراسة جميع النواحي المتصلة بحياة اللغة (لأن كل ما يعتور اللغة في حياتها لا يعدو الأمور التي عرضنا لها في هذه الفصول) ، ظهر لنا ، في صورة لا يتطرق إليها الشك ، صدق الحقيقتين الآتيتين ، وهما اللتان رمينا إلى بيانهما في هذه الرسالة:

١ - أن اللغة في مختلف مظاهر حياتها - شأنها في ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى - ترتبط ارتباطا وثيقا بما عداها من ظاهرات العمران ، وأن أهم العوامل التي تؤثر فيها ترجع إلى هذه الظاهرات .

غير أنه قد تبين لنا كذلك أن اللغة قد تتأثر في بعض نواحيها بظواهر غير اجتماعية كالأمور التي تتصل بالبيئة الجغرافية^(٢) أو بوظائف الأعضاء^(٣)

(١) انظر صفحات ٩١ - ٩٤ ؛ ١٢٠ - ١٢٢ ؛ ١٥٥ - ١٦٠ .

(٢) انظر مثلا صفحات ٦٣ ، ٦٤ ، ١٣٢ (فقرة ٣) .

(٣) انظر مثلا صفحات ٥٥ - ٦١ .

أو باختلاف الشعوب في خواصها الجسمية الوراثية^(١) أو بعدد السكان ومبلغ
كثافتهم أو تخلخلهم^(٢) أو ببنية اللغة نفسها ومتمنها وقواعدها وطبيعتها أصواتها
وتفاعلها بعضها مع بعض وموضع الصوت في الكلمة وما إلى ذلك^(٣).

حقاً إن آثار هذه العوامل ليست شيئاً مذكوراً بجانب آثار العوامل الاجتماعية
كما ظهر ذلك من دراستنا السابقة . ولكن مهما يكن لهذه الآثار من أهمية
نسبية ؛ فإن عليها تتوقف نواح كثيرة في حياة اللغة .

وحقاً إنه من الممكن — كما تبين ذلك من دراستنا السابقة — أن يرد بعض
هذه العوامل إلى ظواهر الاجتماع . ولكن قسطاً غير يسير منها لا يمت بصلة ما
إلى هذه الظواهر ، أو يمت إليها بصلات ضعيفة أو غير مباشرة ، أو يقتضى
رده إليها إيفال في التعسف وإمعان في التشبث بأوهن الملبسات .

ومن ثم يتبين لنا فساد ما يذهب إليه بعض المتطرفين من علماء الاجتماع ،
كالعلامة السويسرى دوسوسور De Saussure ومنحاه نحوه، إذ يقررون أن
جميع المؤثرات في حياة اللغة ترجع إلى أمور اجتماعية^(٤).

(١) انظر مثلاً صفحات ٦٤-٦٨ ، ١٣٢ (فقرتى ٤ ، ٥) ، ١٣٣ .

(٢) انظر مثلاً ٩٧ ، ١٠٩ ، وآخر ١٢٧ وأول ١٢٨ .

(٣) انظر مثلاً صفحات ٦٩ - ٩٠ .

(٤) جمع تلاميذ العلامة دوسوسور بعد وفاته طائفة من بحوثه اللغوية القيمة في
كتاب سموه دروس في علم اللغة Cours de Linguistique Générale (طبع
بلوزان لسنة ١٩١٦) . — هذا ويفرق دوسوسور في كتابه هذا بين اللغة = Langage

٢ — أن اللغة في مختلف مظاهر حياتها — شأنها في ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى — لا تسير تبعاً للأهواء والمصادفات ولا وفقاً لإرادة الأفراد؛ وإنما تخضع في سيرها لقوانين مطردة ثابتة ، لا يد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدي إليه .

ولا نقصد بذلك أن نقرر مبدأ الجبرية المطلقة في حياة اللغة ، ولا أن ننكر إمكان التدخل في شئونها . ولكننا نقصد بذلك أن نبين أن كل تدخل يتنافر مع القوانين الطبيعية التي تسير عليها اللغة في حياتها لن يغير شيئاً مما تقضى به هذه القوانين ، وأن التدخل المنتج هو الذي يساير هذه القوانين ، ويهيئ الظروف المواتية لتحقيقها في الناحية المقصودة . فما ذهب إليه « بيكون » Bacon بصدد التدخل في الظواهر الطبيعية ، إذ يقرر أنه « لا يمكن السيطرة على الطبيعة إلا بطاعتها ومسايرتها » . « To govern nature, you must first obey her » . يصدق كذلك على ظواهر اللغة وما إليها من الظواهر الاجتماعية الأخرى .

== والكلام Parole . ويعنى بالكلام تطبيق الفرد في تفاهمه مع غيره للنظم اللغوية التي تواضع عليها مجتمعة . والكلام في نظره عمل فردي في جوهره ، ولذلك يخضع أحياناً لمؤثرات غير اجتماعية (المؤثرات الجسمية والنفسية ... وما إلى ذلك) . وأما اللغة فظاهرة اجتماعية تنشأ من طبيعة الاجتماع ويشرف عليها العقل الجمعي . ولذلك لا يكاد يكون لغير الظواهر الاجتماعية أثر ذو بال في شئونها . (انظر كتاب دوسوسور المذكور آنفاً) .

وقد انبرى للرد على أصحاب هذا المذهب طائفة من الباحثين في علم النفس اللغوي ، على رأسها أستاذي المرحوم دولاكروا Delacroix (انظر الفصل الثاني من مؤلفه : « اللغة والفكر Le Langage et la Pensée ») ، وطائفة من علماء اللغة على رأسها العلامة دوزا Dauzat (انظر صفحات ١٨٢ — ١٩٥ من كتابه : « فلسفة اللغة ») .

ومن ثم وجب على كل من يحاول إصلاحا لغويا أن يعتمد قبل كل شيء إلى دراسة حياة اللغة ، ومناهج تطورها ، وما تخضع له في حياتها من قوانين ؛ حتى يتميز له الممكن من المستحيل ، ويستبين له ما يتفق مع السنن الكونية وما يتنافر مع طبيعة الأشياء ، وحتى تأتي إصلاحاته مسيرة لهذه الطبيعة ، فتؤتى أكلها وتكمل بالنجاح .

انتهت الطبعة الثانية في ربيع الأول سنة ١٣٧٠ هـ
يناير سنة ١٩٥١ م

تعلیق حضرة صاحب المعالی عبد العزیز فهمی باشا
على هذا الكتاب وتعیب المؤلف علیه

تفضل كثير من الباحثين في مصر والبلاد العربية بالتنويه بهذا الكتاب
والتعیب على محوثة عقب صدور الطبعة الأولى منه . وكان من أهم هذه التعليقات
جميعاً وأعظمها نفعاً كلمة كريمة لأستاذنا الجليل حضرة صاحب المعالی عبد العزیز
فهمی باشا حررها في خطاب أرسله إلى المؤلف، وعنى فيها بوجه خاص بالتعلیق
على ماورد في الكتاب بصدد الرسم العربی ووجوه إصلاحه ؛ وهو موضوع
قد وجه إليه معاليه عناية كبيرة ، وقدّم بشأنه إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية
اقتراحاً مشهوراً بسطه في كتابه القيم في « الحروف اللاتينية للرسم العربی » .
ويسعدنا أن ثبت فيما يلي خطاب معاليه ؛ ثم نعقب عليه بتوضيح المشكلة
التي عرض لها ، ومناقشة ماقدّم لعلاجها من مقترحات ، ومن بينها اقتراح
معاليه باستبدال حروف الرسم اللاتینی وأسلوبه بحروف الرسم العربی وطريقته ؛
ونختم البحث ببيان رأينا في هذا الموضوع :

١ - خطاب معاليه إلى المؤلف

حضرة

. . . تناولت كتابكم « في اللغة والمجتمع » مسروراً شاكراً ، ثم قرأته بكل عناية واهتمام . وقد وجدتكم تناولتم فيه موضوع تطور اللغات وبختموه لا من « كل أطرافه » كما يقول الأدباء ، بل فليتموه وفخضتموه من « شوشته إلى قدمه » كما يقول أهل قريتنا . ولقد نهجتم في عرضه طريقة البيان السهل الممتع الممتنع ، وزدتم التنوير والإيضاح بما تريدتم من التشقيقات والتفريعات ، وبما ضربتم الأمثال من ماضي اللغات وحاضرها وقاصي البيئات ودانها ، وانتهيتم من استدلالكم القيمة إلى تقرير تلك الحقيقة الأبدية وهي : « أن اللغات وما يتفرع عنها من اللهجات كانت وما زالت ولن تزال في تطور مستمر ، وأن هذا التطور قانون ثابت يجري مجراه ويأخذ حكمه حتماً كلما توافرت دواعيه وعوامله ، وأن هذه الدواعي حاصلة لا محالة وإن أبطأ ظهورها حيناً طويلاً أو قصيراً ، وأن هذا القانون - الذي حصلت بيا نكم إياه بالعبارة السابقة - هو قانون عام ماشذت ولا تشذ عنه أية لغة من لغات العالم قديمها وحديثها . فهو متمش على العربية كما تمشى من قبل على اللاتينية وغيرها ، وكما هو متمش وسيتمشى حتماً على الألمانية والفرنسية والإنجليزية وغيرها .

كل هذا ياسيدى من جانبكم كلام صحيح معقول مقبول رضى الناس أو أبوا؛ فإن القوانين الاجتماعية لا تعرف المحاباة ، ولا ترعى لبنى آدم حرمة ولا عاطفة

ولا شعوراً ، بل هي كقوانين الطبيعة من نشوء وشباب وهرم وموت ، تسرى على الناس كافة بغير تفريق بين أجناسهم ولا دياناتهم ولا لغاتهم .

وأكرر أن هذا خلاصة رأيك ، وهو حق كل الحق ، وجميل كل الجمال . غير أنني لاحظت أنك ، وأنت في معرض الكلام على اللغات وتطورها ، قد تعرضت - وبحق - إلى رسم اللغات . وهنا أشرت - فيما أشرت - إلى شكوى الناس قديماً وحديثاً من رسم الكتابة العربية . ولكن سعة علمك ، وجميل منطقك ، وسلامة ذوقك ، كل هذا أبى عليك إلا الاحتراس في التقرير ، فقلت في آخر صحيفة ٣٨^(١) : «ولكن الرسم العربي ليس في حاجة إلى كثير من الإصلاح ، فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطاً في القواعد ، ومطابقة للنطق » .

بقطع النظر عن سلامة القول بأن في رسم العربية دقة وضبطاً في القواعد ومطابقة للنطق ، أو عدم سلامته ، فمن رأيك أن هذا الرسم محتاج للإصلاح ، ولكن لا الكثير من الإصلاح . ماهو هذا الإصلاح الذي يستلزمه رسم العربية قلّ أو أكثر ؟ .

إن سيدي الأستاذ يعلم حق العلم أن الشكوى من رسم العربية ليست آتية من جهة أن أهلها يصعب عليهم إخراج نغماتها الصوتية ، فإن كل الأطفال الذين يقرءون شيئاً من القرآن الكريم بكتاتيب القرى ، وكل أطفال المدارس الأولية يعرفون كيف ينطقون نغمات الثاء والجيم المعطشة والذال والطاء والقاف ، تلك

(١) جاء هذا النص في السطرين الخامس والسادس من صفحة ٤٤ من هذه الطبعة .

النغمات الخمس التي ليست أصيلة ولا عامة عند أهل اللهجات العربية البعيدة عن الفصحى. أما سائر الحروف الفصحى كالباء والتاء والحاء والخاء والذال والراء ... إلى آخر الأبجدية ، فنغماتها يعرف المصري وغير المصري من أهل البلاد العربية أن ينطق بها نطقاً لا شائبة فيه ، بلا فرق في هذا بين متعلم وأمّي . لكن هذه النغمات ليست هي اللغة العربية الفصحى المراد خدمتها ، وإلا لما تعذرت على أحد . بل الفصحى هي هذه النغمات موجهة في الكلمة الواحدة توجيهاً مختلفة يقوم بها في اللغات الأجنبية حروف الحركات ولا يقوم بها عندنا إلا الشكل الذي أفلس .— هذا هو موطن الصعوبة عندنا ومثار الشكوى . وما بهم فيما يتعلق بنأن تكون كتابة اللغات الأجنبية فيها مساوية أولاً يكون ، إنما الذي يهمنا هو رسم كتابتنا دون غيرنا . فعندما نقول إن رسم العربية هو من أكثر أنواع الرسم « سهولة ودقة وضبطاً في القواعد ومطابقة للنطق » ، اسمح لي أن أقول إن هذا لا يطابق الواقع إلا من جهة السهولة أي الاختزال المخل فقط . أما من جهة الدقة وضبط القواعد والمطابقة للنطق ، فإن هذا تجوّز في التعبير . إذ معنى الكلمة العربية لا يتأدى بمجرد نغمات الحروف ، بل بهذه النغمات محركة في اتجاهات مختلفة . وهذا الغرض لا يؤديه الرسم العربي مطلقاً ، أو هو يؤديه ويؤدي كثيراً غيره في آن ، مما يوجب التشوش والاضطراب . وهيئات أن يسعفنا هذا الرسم العاجز ، ولو أضيف إليه الاضطلاع التين بقواعد اللغة من صرف ونحو وغيرهما . — وأما تقوله في صدر صحيفة ٣٩^(١) مما حاصله أن لمجود

(١) جاء هذا في صفحة ٤٤ (من السطر السادس إلى آخرها) وفي أول صفحة ٤٥

من هذه الطبعة .

الرسم فائدة تخليد ما خلفته قرائح أهل اللغة من الآثار ، فاستح لي أن أقول إن هذا كلام جيد معقول ، ولكن على شرط واحد وهو أن تكون هذه المخلفات ممكناً لأى عارف بالقراءة والكتابة أن يقرأها على الوجه الذى أراده واضعها . وما أظن السيد يعارض فى هذا الشرط أو يرى سهولة تحقيقه ، خصوصاً مع تطور اللغة وعدم استقرارها على حال واحدة ، ذلك التطور الذى وضع كل كتابه لبيانه . وإذن بقينا مرتطمين بالصعوبة التى نحن فيها الآن .

لا أريد أن أقول إن حضرة الأستاذ الفاضل يستعمل فى عرض أفكاره القيمة التَّحْقِيقِيَّة التى طالما استعملها الجاحظ وغيره من كبار السلف المحترمين ، بل كل ما أريد أن أقوله للسيد هو أنى أنست كثيراً بكتابه وفرحت بسعة علمه . وإنى أرجو الله أن يكثر من أمثاله وأن يوفقه فى عمله ويأخذ بيده فيه ، والسلام مع أوفى الشكر والاحترام^(١) .

عبد العزيز فرهمي

(١) نشر هذا الخطاب الكريم فى عدد يوم الاثنين ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٦ من مجلة الرسالة الغراء .

٢ — تعقيب المؤلف على خطاب معاليه

يسعدنا أن نتقدم بجزيل الشكر لحضرة صاحب المعالي أستاذنا الجليل
عبد العزيز فهمي باشا لما قدمه إلينا في خطابه من توجيهات سديدة قيمة وما خصّ
به كتابنا من ثناء وتقدير كريمين .

أما الموضوع الذي عرض له وهو موضوع الرسم العربي ووجوه إصلاحه
فيسرنا بهذه المناسبة الطيبة التي أتاحتها لنا خطاب معاليه أن ننقل هنا ما كتبناه
بشأنه في الطبعة الثالثة لكتابنا « فقه اللغة » ^(١) ، آمليين أن يكون فيه توضيح
كاف لمختلف نواحي هذه المشكلة وما قدم في صدد علاجها من مقترحات كان
من أهمها وأشدّها دَوْبًا اقتراح معاليه باستبدال حروف الرسم اللاتيني وأسلوبه
بحروف الرسم العربي وطريقته :

أولا — عيوب الرسم العربي

ترجع أهم عيوب الرسم العربي إلى أمور ثلاثة :

(أحدها) أن الكلمات تدون غالباً بحسب هذا الرسم في الكتابة والطبع
عارية عن حركات حروفها ، أي مجردة من الإشارة إلى أصوات المد القصيرة
(الفتحة والكسرة والضمة) التي تلحق الأصوات المقطعية في الكلمة .

وهذا النقص مشترك بين معظم أنواع الرسم السامى . - ويرجع سببه إلى أمور تتعلق بأصول الكلمات فى اللغات السامية . وذلك أن للأصوات المقطعية (ونعنى بها ما عدا أصوات المد) فى اللغات السامية أهمية تزيد كثيراً على أهمية أصوات المد . فالعنى الأساسى للكلمة يشار إليه فى هذه اللغات بالأصوات المقطعية ؛ أما أصوات المد فلا تعدو وظيفتها تحديد هذا المعنى الأساسى وتوجيهه وجهات خاصة . فالعنى العام للعلم مثلاً تدل عليه فى اللغة العربية ثلاثة أحرف مقطعية وهى العين واللام والميم ؛ أما أصوات المد الطويلة (الألف والياء والواو) والقصيرة (الفتحة والكسرة والضمة) التى تلحق جميع هذه الأصوات المقطعية أو تلحق بعضها ، فلا تعدو وظيفتها تحديد المعنى العام للعلم ببيان نوعه أو زمنه أو ناحية اشتقاقه أو علاقته بما عداه من عناصر الجملة ... وما إلى ذلك . - هذا إلى أن الأصوات المقطعية تنال فى اللغات السامية أكبر قسط من عناية المتكلم والسامع ؛ وهى لذلك أوضح فى الجرس من أصوات المد وأظهر منها فى السمع . ولذلك وجه الرسم السامى معظم عنايته إلى إظهار هذا النوع من الأصوات . فالأشكال القديمة للرسم السامى كانت تقتصر على هذه الأصوات وتغفل الإشارة إلى جميع أصوات المد سواء فى ذلك الطويل منها والقصير . والرسم العربى الحديث يشير إلى أصوات المد الطويلة بحروف الألف والياء والواو ، ولكنه يغفل الرمز إلى أصوات المد القصيرة ، أو يشير إليها بحركات ترسم فوق الحروف أو تحتها . ولا تكاد تدون هذه الحركات فى العصر الحاضر إلا فى الكتب

الأولية التي تستخدم في تعليم النشء مبادئ القراءة والكتابة . أما فيما عدا ذلك فقد جرت العادة أن تدون الكلمات في الكتابة والطبع عارية عن الشكل .
ومهما يكن من شيء بصدد الأسباب التي أدت إلى هذا العيب ، فقد ترتب عليه في الوقت الحاضر أضرار كثيرة أهمها ما يلي :

١ — أنه لا يستطيع أحد أن يقرأ نصاً عربياً قراءة صحيحة وبشكل جميع حروفه شكلاً صحيحاً إلا إذا كان ملماً بقواعد اللغة العربية وأوزان مفرداتها إلماً تاماً ، وكان فاهماً من قبل معنى ما يقرأه . ففي معظم اللغات الأوروبية ، كما يقول قاسم أمين ، يقرأ الناس قراءة صحيحة ما تقع عليه أبصارهم ، وتتخذ القراءة وسيلة للفهم ، أما نحن فلا نستطيع أن نقرأ قراءة صحيحة إلا إذا فهمنا أولاً ما نريد قراءته .

٢ — أن النص العربي الواحد عرضة لأن يقرأ قراءات متعددة بعيدة عن اللغة الفصحى . وذلك لأنه قد حدث تناوب واسع النطاق في أصوات المد القصيرة في اللهجات العامية ، حتى إننا لانكاد نجد كلمة باقية في هذه اللهجات على وزنها العربي الصحيح . فالنص العربي المجرد من الشكل عرضة لأن يقرأه أهل كل لهجة حسب منهجهم في وزن الكلمات .

٣ — أنه من المتعذر في هذا الرسم قراءة أسماء الأعلام (أسماء الأمكنة والبلاد والجبال والبحار والأناسي ... الخ) قراءة صحيحة إلا إذا كان القارئ يحفظ الكلمة وضبطها من قبل . ولذلك تضطر بعض المعجمات إلى تهجي

حروف الكلمات التي من هذا القبيل والنص على حركة كل حرف منها ؛
فيقول مثلاً « صفين » بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء الموحدة بالكسر .

٤ — أن رسماً كهذا من شأنه أن يشيع اللحن ، ويعمل على انحلال
العربية الفصحى ، ويحول دون تثبيت ملكتها في النفوس ، ويحمل على
الاستهانة بقواعدها ، ويصرف كثيراً من خاصة الناس أنفسهم عن الإسلام
بضوابطها النحوية والصرفية ؛ لأن في استطاعتهم ، بفضل هذا الرسم المريب ، أن
يكتبوا ويؤلفوا ، بدون أن يكونوا مالمين بأصول هذه اللغة ، ولا مستطيعين هم
أنفسهم قراءة ما يكتبونه قراءة صحيحة ، وبدون أن يظهر في كتاباتهم أى أثر
لقصورهم هذا .

(وثانيها) أن للحرف الواحد بحسب هذا الرسم صوراً مختلفة : فله صورة
إذا كان مفرداً ، وأخرى إذا كان متصلاً بغيره ؛ وله صورة إذا كان في أول
الكلمة ، وأخرى إذا كان في وسطها ، وثالثة إذا كان في آخرها .

وقد ترتب على ذلك أضرار كثيرة من أهمها مايلي :

١ — أن تعدد هذه الصور من شأنه أن يحدث الارتباك والحيرة عند
المبتدئين من المتعلمين ويطيل زمن تعلمهم للكتابة .

٢ — أنه يكلف المطابع نفقات باهظة في الحصول على عدة نماذج لكل
حرف من حروف الهجاء .

٣ — أنه يخلق صعوبات في الطبع ، ويرهق العمال القائمين على صف
الحروف من أمرهم عسراً ، إذ يتردد الواحد منهم بين أكثر من ثلثمائة صندوق

مختلفة في صور ما تشتمل عليه من نماذج ، فضلاً عن صناديق الشكل وعلامات الترقيم ؛ بينما لا يتردد العامل القائم على صف الحروف الإفرنجية إلا على نحو مائة صندوق .

٣ — أن كثرة الصناديق وتعدد الصور للحرف الواحد ، كل ذلك يجعل عمل هؤلاء العمال عرضة للزلل . ومن أجل هذا تكثر الأخطاء المطبعية في الكتب العربية ؛ بينما تندر جداً في الكتب الإفرنجية . مع أن جامعي الكتب الأولى ومصلحي تجاربها يبذلون من الجهد في الجمع والإصلاح أضعاف ما يبذله زملاؤهم في الكتب الثانية .

(وثالثها) أن رموز هذا الرسم تنقسم إلى طوائف تشتمل كل طائفة منها على حروف متحدة في صورتها ، ولا يمتاز بعضها عن بعض إلا بالإعجام والإهال أو بعدد النقط (ب ت ث ن ي ، ج ح خ ، د ذ ، ز .. الخ) .

وقد ترتب على ذلك أضرار كثيرة من أهمها ما يلي :

١ — أن رسم الكلمة العربية يقتضى الكاتب بعد الفراغ من كتابتها أو في أثناءها أن يضع ما يجب وضعه من نقط فوق معظم حروفها أو تحتها . وفي هذا إسراف في المجهود وإكثار في العمليات التي يقوم بها القلم وفي نوعها .

٢ — أن القلم كثيراً ما يزلّ في تدوين هذه النقط ، فيغفل بعضها ، أو ينقص من عددها أو يزيده ، أو ينحرف بها عن مواضعها وخاصة في الرسم السريع ؛ فتصبح الكلمة عرضة لأن تقرأ على وجوه متعددة ، ويقع القارئ

في الحيرة ، أو يضطر في تمييز هذه الحروف المتشابهة بعضها من بعض إلى الاعتماد على فراسته وفهمه لسياق الكلام .

٣ — أن كثرة الحروف المنقوطة وخروج النقط عن هيكل الكلمة ، كل ذلك يجهد القارئ ويوقع نظره في الارتباك . فيقرأ الكلمة أحيانا على غير وجهها حتى مع صحة كتابتها ورسم نقطها في مواضعها . ولاتقاء ذلك تضطر بعض الكتب والمعجمات إلى النص على نوع الحروف التي يخشى فيها اللبس ، فتقول مثلا « جمل » بالجميم المعجمة التحتية ، و « حمل » بالحاء المهملة ، و « بيت » بالباء الموحدة التحتية فالياء المثناة التحتية فالتاء المثناة الفوقية .

ولا يكاد يخلو من مثل هذه العيوب ، بل مما هو أشد منها ، أى نوع من أنواع الرسم . فاللبس الذي يحدثه أحيانا الرسم العربي ليس شيئا مذكورا بجانب اللبس الذي يحدثه الرسم الإنجليزي مثلا ، وخاصة في النطق بأصوات المد Vowels : a, e, i, o, u, ie, io, ei, oi. ea, ee...etc . فكثيرا ما يختلف النطق بالصوت الواحد من هذا النوع وغيره تبعاً لاختلاف الكلمات التي يرد فيها . حتى إنه لا يستطيع قراءة معظم الكلمات الإنجليزية قراءة صحيحة بمجرد النظر إلى حروفها ؛ بل لابد في ذلك أن يكون القارئ قد عرف نطق الكلمة من قبل عن طريق سماعها من إنجليزي ؛ كما أنه لا يستطيع كتابتها كتابة صحيحة بمجرد سماعها بل لابد في ذلك أن يكون قد حفظ حروفها من قبل عن ظهر قلب . وإذا كان الأوروبيون يقرءون قراءة صحيحة ، فليس سبب ذلك راجعاً إلى أن

رسمهم يعبر تعبيراً دقيقاً عن أصوات الكلمة ؛ وإنما هو راجع إلى أن لغة كتابتهم لا تنكاد تختلف عن لغة حديثهم ؛ فيكفى أن يُرمز للكلمة على أية صورة لينطق بها الواحد منهم على وجهها الصحيح .

ولكن وجود هذه العيوب أو ما يشبهها في الرسم الأوروبي أو غيره لا يبرر إغفال علاجها في الرسم العربي ؛ وخاصة لأن اتفاق لغة الحديث مع لغة الكتابة عند الأوروبيين يخفف كثيراً من آثار هذه العيوب في رسمهم ، على حين أنها تنطوى على أضرار بليغة في الرسم العربي في العصر الحاضر الذي انحرفت فيه اللهجات العامية أو لهجات الحديث انحرافاً كبيراً عن اللغة الفصحى التي نستخدمها في الكتابة .

ثانياً — ما اقترحه الباحثون من قبل لإصلاح الرسم العربي

هذا ، وقد قدمت عدة اقتراحات لسد مواطن النقص السابق ذكرها . وترجع هذه الاقتراحات إلى قسمين رئيسيين : يكتفى أصحاب القسم الأول منها بإصلاحات شكلية لا تمس جوهر اللغة ولا صورة الرسم الحاضر ؛ ويرى أصحاب القسم الثانى إلى إدخال تغيير جوهري في اللغة نفسها أو في صورة رسمها .

أما اقتراحات القسم الأول فن أهمها ما يلي :

١ — أن يلتزم شكل الكلمة التي من شأنها أن تثير اللبس عند أوساط

المتعلمين إذا تركت من غير شكل . أما الكلمات التي يدل السياق على شكلها . أو يكفي إلمام بمبادئ القواعد العربية للنطق بها على وجهها الصحيح ، أو لا يمكن أن ينطق بها في صورة أخرى ، فمن العبث الالتجاء فيها إلى الشكل .

وغنى عن البيان أن هذا الاقتراح لا يقضى إلا على قليل من عيوب الرسم العربي ، ولا يبق إلا من بعض الأضرار التي أشرنا إليها آنفاً ، ولا تكاد تظهر ثمرته إلا لدى الملمين بقواعد اللغة العربية وأوزان مفرداتها .

٢ - أن يلتزم شكل جميع الحروف في المطبوع والمكتوب . فتوضع فوق كل حرف أو تحته الحركة التي تدل على صوت المد القصير الذي يلحقه ؛ كما يتبع ذلك في تعليم النشء مبادئ القراءة والكتابة .

وهذا الاقتراح لا يعالج إلا ناحية واحدة من نواحي المشكلة ، وهي الناحية المتعلقة بالرمز إلى أصوات المد القصيرة ، ويغفل ما عداها إغفالا تاماً . هذا إلى أنه يعالج هذه الناحية في صورة تنطوى على كثير من الإسراف في نفقات المطابع والورق وجهود القائمين على شئون الطبوع ، وترهق الكاتب والقارئ من أمرها عسراً . وفضلاً عن هذا كله فإن رسم الشكل فوق الحرف أو تحته مع اتصال الحروف بعضها ببعض وضيق الحيز الذي يشغله كل حرف منها ، يجعل هذا الشكل عرضة للانحراف ، فيحدث الارتباك ، ويوقع في الخطأ والحيرة . على أن التجارب قد دلت على أن القلم كثيراً ما يزل في تدوين هذه العلامات الخارجة عن هيكل الكلمة وأن النظر كثيراً ما يتخطاها عند القراءة ؛ فلا تكاد تؤدي الغرض المقصود منها .

٣ — واقترح بعضهم إدخال الشكل في بنية الكلمة حتى لا يتخطاه نظر القارئ . وذلك بأن تختار حروف للرمز إلى أصوات المد القصيرة (التي يرمز إليها الآن بالفتحة والكسرة والضمة) وتدون هذه الحروف في صلب الكلمة في مواضعها . فلتدوين كلمة (كتب) مثلاً يرسم بعد كل من الكاف والتاء والباء الحرف الذي سيختار للإشارة إلى ما تشير إليه الفتحة في رسمنا الحاضر . وهذا هو المنهج الذي يسير عليه الرسم الأوربي Kataba . وينتصر لهذا الاقتراح عدد كبير من الباحثين على رأسهم أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا^(١) . وهذه الطريقة لا تعالج كذلك إلا ناحية واحدة من نواحي المشكلة وهي الناحية المتعلقة بالرمز إلى أصوات المد القصيرة ، وتغفل ما عداها إعفالا تاماً . هذا إلى أنها تخلق لنا رسماً يختلف في كثير من الوجوه عن رسمنا الحالي . فتقطع بذلك الصلة بين ماضينا وحاضرنا . ومن ثم توجه إليها معظم المآخذ التي سنوجهها إلى المقترحات التالية .

(١) نشر هنا الرأي في مجلة الموسوعات سنة ١٨٩٨ ، ثم عاد فأشار إليه في مجلة الشؤون الاجتماعية بعدد فبراير سنة ١٩٤١ . غير أنه عقب عليه في صفحة ١١ من هذه المجلة الأخيرة بما نصه : « ولست متمسكا بالطريقة التي اقترحتها منذ زمان بعيد . ولكنني راض بأية طريقة تؤدي إلى الغاية التي ننشدها من توحيد لغة الكتابة ولغة الكلام في الجملة ليسهل تعليمها من ناحية وليوجد حد مشترك من اللغة بين المتعلمين وغير المتعلمين » . غير أنه يظهر لنا أن هذه الغاية التي يبغيها معالي أستاذنا لا يكاد يتحقق شيء منها بما تضمنه اقتراحه من إدخال الشكل في رسم الكلمة ؛ وذلك أن الفائدة التي يحققها هذا الإصلاح لا تكاد تعدو تسهيل القراءة واتقاء الخطأ في ضبط الكلمة حسب وزنها في اللغة الفصحى .

وأما اقتراحات القسم الثانى . وهى التى ترمى إلى إدخال تغيير جوهري فى اللغة نفسها أو فى صورة رسمها ، فيرجع أهمها إلى مايلي :

١ - أن تستبدل الحروف اللاتينية ومناهج الرسم اللاتينى (التى ترمز إلى أصوات المذ القصيرة بحروف تدون فى صلب الكلمة) بالحروف العربية ومناهج الرسم العربى . وعلى رأس القائلين بهذا الاقتراح فى الوقت الحاضر معالى الأستاذ العلامة عبدالعزيز فهمى باشا . وقد نشر بشأنه منذ عهد قريب كتاباً قىما عنوانه : « الحروف اللاتينية للرسم العربى » .

ولا شك أن تطبيق هذا الاقتراح - بعد تنقيح فى بعض التفاصيل التى ذهب إليها القائلون به - كفىل بالقضاء على جميع عيوب الرسم العربى واثقاء أضرارها السابق ذكرها .

غير أنه ينطوى على ضرر آخر بليغ . وذلك أن من شأنه أن يحول ، عاجلا أو آجلا ، بين الأجيال القادمة والانتفاع بالتراث العربى المدون برسمنا الحاضر . حقاً إنه يمكن اتقاء ذلك بالالتجاء إلى إحدى محاولتين ؛ ولكن كليهما توقع فى صعوبة تزيد كثيراً على الصعوبة التى نعمل على إزالتها . أما إحداها فأن يتعلم كل فرد نوعين من الرسم العربى : الرسم القديم الذى يتيح له الانتفاع بنتاج الفكر العربى من النشأة إلى العصر الحاضر ؛ والرسم الحديث الذى يقرأ به مايدون بعد هذا الإصلاح ويستخدمه فى كتابته . ولا يخفى ما يترتب على ذلك من الارتباك ، وإطالة الزمن الذى تعلم فيه القراءة والكتابة ، وانفرادنا من بين سائر الأمم بأعجوبة فى ميادين الرسم والتعليم . وأما الأخرى فأن يعمد إلى جميع

ما كتب أو طبع بالرسم العربى فى مختلف أنحاء العالم فىعاد تدوينه أو طبعه وفق هذا الرسم الحديث . ولا يخفى أن مشروعاً هذا شأنه تنوء به الجهود الإنسانية وتعجز الخزائن عن تمويله .

٢ — واقترح آخرون أن يكون لكل حرف من حروف الهجاء العربى أربع صور مختلفة : صورة فى حالة تحركه بالفتح ؛ وأخرى فى حالة تحركه بالكسر ؛ وثالثة فى حالة تحركه بالضم ؛ ورابعة فى حالة تسكينه . وهذا فى مجمله هو المنهج الذى يسير عليه الرسم الحبشى .

وتفضل هذه الطريقة الطريقة السابقة بأنها تحقق الغرض المنشود مع إبقاء عدد حروف الكلمة على ماهى عليه ؛ فتوفر بذلك قسطاً كبيراً من الوقت والمجهود والنققات المادية فى الورق وأجور العمال ... وما إلى ذلك من الأمور التى تقتضيها الطريقة السابقة . فكلما « كتب » مثلاً ترسم ثلاثة أحرف حسب هذه الطريقة ؛ على حين أنها ترسم ستة حسب الطريقة السابقة .

ولكنها تشتمل على الضرر البالغ نفسه الذى أشرنا إليه فى نقدنا للاقتراح السابق ، وهو قطع الصلة بين الماضى والحاضر ، وتعويق الأجيال القادمة عن الانتفاع بالتراث العربى المدون بالرسم الحالى . هذا إلى أن عدد حروف الهجاء يصبح بحسب هذه الطريقة أربعة أضعاف عددها الحاضر . ولا يخفى أن ذلك يكلف المطابع نفقات باهظة ، ويرهق العمال القائمين على صف الحروف ، ويجعل عملهم عرضة للزلل ، ويشيع الأخطاء المطبعية ، ويحدث الارتباك والحيرة عند المبتدئين من المتعلمين ، ويطيل زمن تعلمهم للهجاء .

٣ - واقترح بعضهم إلغاء الإعراب وإلزام السكون أو اواخر الكلمات ، حتى تضيق مسافة الخلف بين رسم الكلمة ونطقها في اللهجات العامية المستخدمة في المحادثة ، فتسهل على الناس القراءة ، ويتخلص الرسم من بعض عيوبه . وقد كفانا أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا مثونة الرد على هذا الاقتراح بما عقب به عليه في مجلة الشؤون الاجتماعية إذ يقول : « وهذا رأى مطعون فيه من وجهين . أما الأول فإنه لا يحل من المسألة إلا بعضها دون البعض الآخر ، لأن ضبط حركات الحروف ليس ضرورياً في الإعراب فحسب ، بل هو أشد ضرورة في بنية الكلمة . وهذا الضبط من جوهر اللغة ؛ فإذا أهملنا الشكل ولم نأت بطريقة تقوم مقامه ظل الناس يلفظون الكلمات على غير وجهها الصحيح كما هم الآن يفعلون . وأما الوجه الثانى فإن فى هذا رأى إهداراً لصورة اللغة العربية وقضاء على أهم مميزاتها ؛ وذلك مالا نظن أحد يرضاه متى أمكن تسهيل اللغة وشيوعها من غير الالتجاء إلى العبث بسلامتها ومميزاتها ^(١) » .

ثالثاً - رأى فى إصلاح الرسم العربى

هذا ، وقد دعانى نقص الاقتراحات السابقة وعدم كفايتها إلى التفكير فى طريقة تخلص الرسم العربى من عيوبه الثلاثة جميعاً ، بدون أن تضطر القلم والنظر

(١) مجلة الشؤون الاجتماعية عدد فبراير سنة ١٩٤١ . هذا وكنا نود لو اقتصر أستاذنا الجليل على ما تقدم ، ولم يعقب عليه بما قد يفهم منه بعض الناس أن مثل هذه الاعتبارات لا ينبغى أن تحول دون تحقيق التيسير الذى يتضمنه هذا الاقتراح .

إلى الصعود والمهبوط نحو حركات ترسم فوق الحروف أو تحتها ، وتقى القارئ والكاتب شروا الانحرافات المترتبة على هذا الصعود والمهبوط ، وبدون أن تقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ، بل تتيح للأجيال القادمة الانتفاع بتراثنا المدون بالرسم الحالى . فاهتديت إلى طريقة يمكن تلخيص أصولها فى المبادئ الأربعة الآتية^(١) :

(المبدأ الأول) أن ترسم حروف الكلمة مفردة منفصلا بعضها عن بعض . وبذلك يكون لكل حرف صورة واحدة لا تتغير ؛ ويتخلص الرسم من أحد عيوبه الثلاثة السابق ذكرها^(٢) .

(المبدأ الثانى) أن تكتب الحروف المتحدة الصورة (ب ت ث ... الخ) بصور مختلفة ، يؤخذ بعضها من صورة الحرف منفرداً وبعضها من صورته متصلًا بغيره ، أو يؤخذ بعضها من صورته فى خط الرقعة وبعضها من صورته فى خط النسخ أو الثلث . وبذلك يتميز الحرف عن غيره بصورته لا بإعجابه أو إهاله أو عدد نقطه كما هو الحال الآن ؛ ويتخلص الرسم العربى من عيب آخر من

(١) قدمت هذه الطريقة إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، ونشرتها بمجلة الرسالة فى عددها الصادر فى ٦-١٢-٤٤ . ثم أدخلت عليها بعض تعديلات وزيادات ، ونشرتها بصورتها الجديدة فى مجلة الشرق الجديد فى أعدادها الثلاثة الأولى الصادرة فى إبريل ومايو ويونيه سنة ٤٥ . ثم خُطرت لى فيما بعد تعديلات وزيادات يسيرة أخرى . وقدمت الطريقة فى آخر صورة لها (وهى الصورة التى أثبتتها فى هذا الكتاب) إلى المجمع فى ٢٧-١-٤٦ .

(٢) هو العيب الثانى الذى تكلمنا عليه فى النصف الأخير من صفحة ١٧٣ وأول صفحة ١٧٤ .

عيوبه الثلاثة التي أشرنا إليها فيما سبق^(١) ، بدون حاجة إلى اختراع أشكال جديدة للحروف تبعدها عن أشكالها الحالية وتقطع الصلة بين قديمنا وحديثنا . ويمكن في هذه الحالة أن يستغنى عن النقط ، لأن صورة الحرف ستكون كافية في تمييزه . ولكنني مع ذلك أفضل الاحتفاظ بالنقط أو بما يحل محلها في خط الرقعة توثيقاً للصلة بين الرسمين القديم والحديث .

وفيا لى أنموذج للحروف الهجائية العربية وفق هذا الاقتراح . ولست متمسكاً بهذا النموذج ؛ ولكنني راض بأية طريقة أخرى تحقق هذا الغرض وتقتبس صور حروفها من الرسم الحالى نفسه :

١ (لهزمة القطع)^(٢) ١ (لهزمة الوصل) ٢ (للألف اللينة)^(٣) ٣ ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل (للهمزة التي ينطق بها) ٤ (للهمزة التي لا ينطق بها) ٥ م ن هـ (للهاء) ٦ (للتاء المربوطة) ٧ و (لواو المد) ٨ (للاو التي ليست بحرف مد) ٩ (لياء المد) ١٠ (لياء التي ليست بحرف مد) .

(المبدأ الثالث) أن يرسم عقب كل حرف ، لا فوقه أو تحته ، ما يرمز إلى

(١) هو العيب الثالث الذى أشرنا إليه فى السطر التاسع وتوابعه من صفحة ١٧٤ .
(٢) ترسم همزة القطع بهذه الصورة أيا كانت حركتها وحركة ما قبلها وأيا كان موضعها فى الكلمة . فهزمة أحمد وثئة وفؤاد ترسم كلها بهذه الصورة .
(٣) ترسم الألف اللينة بهذه الصورة مهما كان أصل الكلمة وعدد حروفها . فكلمات : دعا ، رعى ، إلى ... الخ ، ترسم ألفها على هذه الصورة .

سكونه^(١) أو حركته أو تنوينه أو تشديده^(٢)؛ ما عدا الحرف المتحرك بالفتحة فلا يرمز إلى حركته لكثرة دوران الفتحة في الكلمات العربية، ويكون رسم الحرف غير متبوع بأية حركة علامة على أنه مفتوح؛ وما عدا الحرف الممدود في رسم غير متبوع بما يدل على حركته، لأن حرف المد المدون بعده يدل على هذه الحركة؛ فالألف اللينة تدل على فتح ما قبلها؛ وياء المد تدل على كسره؛ وواو المد تدل على ضمه.

ويستخدم في الرمز إلى الكسرة والضمة والسكون والتنوين والتشديد بدون التنوين أو مع التنوين العلامات نفسها التي يستخدمها الرسم الحالي، مع تمييز الفتحتين عن الكسرتين بنبرة يسيرة تتصل بإحدهما.

وبذلك يتخلص الرسم العربي من ثالث عيوبه وأهمها، وهو عدم الرمز إلى حركات الحروف؛ بدون أن يكون في طريقته الجديدة خروج على أوضاعه المتعارفة.

(المبدأ الرابع) ترسم علامات الترقيم وفق صورها المتعارفة الآن،،،:؟! «(» ما عدا الشرطتين اللتين تحصران بينهما الجملة المعترضة فيستبدل بهما القوسان () حتى لا تلتبسوا بالكسرة إن رسمتا بصورتهم العادية.

(١) تقصد بالحرف الساكن ما يكون ساكناً بطبعه، لأن الحرف المتحرك إذا ساكن في النطق لعارض كالوقف عليه مثلاً في آخر الكلمة يكون حكمه حكم الحرف المتحرك.

(٢) تقصد بالحرف المشدد ما يكون مشدداً بطبعه أو مشدداً في النطق لوقوعه بعد لام شمسية.

وتمتاز هذه الطريقة عن جميع الطرق المقترحة من قبل بالأمور الآتية :

١ — أنها تخلص الرسم العربي تخليصاً تاماً من عيوبه الثلاثة الرئيسية التي أشرنا إليها فيما سبق وتخلصه من جميع آثارها الضارة ، وتحقق جميع الفوائد المقابلة لها .

٢ — أنها تعفى القلم والنظر من الصعود والهبوط نحو حركات ترسم فوق الحروف أو تحتها ، وتقى القارئ والكاتب شرور الانحراف المترتب على هذه الحركات وأوضاعها . وذلك أن طريقتنا ترسم الحركات في صلب الكلمة نفسها .

٣ — أنها لا تقطع الصلة بين ماضيها وحاضرنا ، ولا تحول بين الأجيال القادمة والارتفاع بالتراث العربي المدون بالرسم القديم ، لأنها تستخدم الصور والأشكال نفسها التي يستخدمها هذا الرسم فيما عدا الفتحين اللتين تلصق بأولهما نبرة يسيرة تميزاً لهما عن الكسرتين . فالعالم بهذه الطريقة يستطيع مع شئ يسير جداً من التأمل والمران أن يقرأ الكتب المدونة بالرسم الحالي .

ولا يؤخذ على هذه الطريقة إلا أمران :

(أحدها) أنها تطيل رسم الكلمة قليلاً بالنسبة إلى رسمها القديم . ولكن ضرر هذه الإطالة ليس شيئاً مذكوراً بجانب ما تحققه من جليل الفوائد للعربية وأهلها . على أن معظم عيوب الرسم القديم قد نشأ عن مبالغته في الاختزال والتعمية وإغفال الرمز إلى كثير من الأصوات التي ينطق بها في الكلمة . فلا يرجى له إصلاح جدى إلا بالقضاء على اختزاله وتعميته واعتماده على فراسة

القارىء . وهذا يستلزم حتماً أن يطول رسم الكلمة حتى تكون رموزها معبرة تمام التعبير عن جميع أصواتها . هذا إلى أننا لم نأل جهداً في تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من الاقتصاد في مجهود القارىء والكاتب والطابع^(١) مع عدم الإخلال بالغرض المقصود، وذلك بما تضمنته طريقتنا من الأصول المشار إليها في مبدئها الثالث .

(وثانيهما) أنها ترسم حروف الكلمة متفرقة . ولكن رسم الحروف متفرقة أسلوب سليم لا غبار عليه ولا غرابة فيه . فقد سار عليه معظم أنواع الرسم السامى (الفينيقي والعبري والآرامى والحبشى والبنى ...) وسار عليه الرسم العربى نفسه فى أقدم صوره ، ويسير عليه الآن الرسم الأوروبى فى الطباعة ؛ بل لقد أخذ هذا الأسلوب ، منذ أمد غير قصير ، ينفذ إلى أقلام الكتّابين باللغات الإفرنجية ، وأخذت مدارس كثيرة تسير عليه فى تعليم الهجاء الإفرنجى وتأخذ تلاميذها به فى كتاباتهم . وقد رأيت بعد تفكير طويل أن هذا الأسلوب وحده هو الكفيل بتخليص الرسم العربى من عيوبه وتحقيق الغايات التى نرمى إليها على أحسن وجه وأكمله . فبفضله نستطيع أن نرمز إلى

(١) تبلغ صناديق المطبعة بحسب الطريقة القديمة ٣٦٦ قسماً للحروف البسيطة غير المشكّلة ؛ وأكثّر من ضعف ذلك للحروف المشكّلة (قاعدة شامية) ؛ بينما تبلغ بحسب طريقتنا ٥٤ فقط للحروف والشكل والترقيم معاً (٣٤ للحروف و١٢ للشكل و٨ لعلامات الترقيم) . فالصناديق فى طريقتنا تقل أقسامها حتى عن صناديق المطابع الأفرنجية نفسها التى تبلغ أقسامها

أصوات المد القصيرة (الحركات) بعلامات ترسم في هيكل الكلمة لافوق حروفها أو تحتها ؛ وبفضله يصبح لكل حرف صورة واحدة لا تتغير مهما كانت حركته وكان موضعه في الكلمة ؛ وبفضله تختلف أشكال الحروف بعضها عن بعض فيتميز كل حرف منها عن غيره بحسب صورته لا بحسب إعجابه أو إهماله أو عدد نقطه .

صحيح أن من اعتاد الرسم والقراءة على الطريقة القديمة التي تقوم على الاختزال ووصل الحروف بعضها ببعض سيعانى بعض العنت في السير على هذه الطريقة المرسلة المتفرقة الحروف . ولكن قليلا من المران كفيل بتخفيف هذا العنت وإزالته . على أن عبأه سيكون مقصوراً على أهل الجيل الحاضر ممن تعلموا على الطريقة القديمة . وأمر كهذا لا يقام له وزن بجانب ما تحققه الطريقة المقترحة من تقويم للألسنة والأقلام ، وصيانة للعربية الفصحى ، وتسهيل في طرق تعلمها وتعليمها ، وتثبيت للمكتها في النفوس ، وتمكين كل فرد من قراءة أية عبارة قراءة صحيحة مهما كانت درجته في العلم ضئيلة ، ومهما كان ضعيفاً في مبلغ إلمامه بقواعد اللغة .

استدراك

- في السطر الحادى عشر من صفحة ٦٢ ، اقرأ : من المراحل
في السطر السادس من صفحة ٦٤ ، اقرأ : كان لهذه البيئة
في السطر الثالث من صفحة ٦٩ ، اقرأ : ينصب عليها أثرها
في السطر السابع عشر من صفحة ٩٧ ، اقرأ : فصائل اللغات
في السطر التاسع من صفحة ١٠٩ ، اقرأ : تغلب إحدى اللغتين
في السطر الأول من صفحة ١١١ ، اقرأ : البريتون
في السطر الثامن من صفحة ١١١ ، اقرأ : ٥,٣ %
في السطر الرابع عشر من صفحة ١١١ ، اقرأ : متنقلا
في السطر السادس من صفحة ١١٦ ، اقرأ : فرص للاحتكاك
في السطر الأخير من صفحة ١٥٠ ، اقرأ : المدون في ص ١٤٨
-

فهرس

(الموضوع)	(الصفحة)
مقدمة	٣ - ٧
الفصل الأول ، تطور اللغة :	٨ - ٩٤
أثر العوامل الاجتماعية	٩ - ٢٤
تأثر اللغة بلغات أخرى	٢٤ - ٣٠
أثر العوامل الأدبية	٣١ - ٥٢
انتقال اللغة من السلف إلى الخلف وأثره في التطور اللغوى	٥٢ - ٦١
أثر العوامل الطبيعية	٦٢ - ٦٨
أثر العوامل اللغوية	٦٨ - ٩٠
خلاصة هذا الفصل	٩١ - ٩٤
الفصل الثانى ، صراع اللغات :	٩٥ - ١٢٢
نزوح عناصر أجنبية إلى البلد وأثره في صراع اللغات	٩٦ - ١٠٨
تجاور شعبين مختلفى اللغة وأثره في صراع اللغات	١٠٩ - ١١٧
عوامل أخرى للاحتكاك اللغوى	١١٧ - ١١٩
خلاصة هذا الفصل	١٢٠ - ١٢٢

(الموضوع)	(الصفحة)
الفصل الثالث ، تفرع اللغة إلى لهجات ولغات :	١٢٣ — ١٦٠
انتشار اللغة وأسبابه وأثره في التفرع	١٢٤ — ١٣١
العوامل المباشرة في تفرع اللغة	١٣١ — ١٣٥
اللهجات المحلية وصراعاها بعضها مع بعض	١٣٥ — ١٤٢
نشأة لغة الدولة أو لغة الكتابة	١٤٢ — ١٤٣
اختلاف نواحي الفصحى باختلاف فنون القول	١٤٤ — ١٤٦
اللهجات الاجتماعية	١٤٦ — ١٥٣
اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء	١٥٣ ، ١٥٤
خلاصة هذا الفصل	١٥٥ — ١٦٠
خاتمة	١٦١ — ١٦٤
مبلغ تأثير اللغة بالعوامل الاجتماعية وغيرها	١٦١ ، ١٦٢
خضوع اللغة في مختلف مظاهرها لقوانين	١٦٣
الطريق الجادة للإصلاح اللغوي	١٦٣ ، ١٦٤
تعليق حضرة صاحب المعالي عبد العزيز فهمي باشا على هذا الكتاب وتعقيب المؤلف عليه .	١٦٥ — ١٨٧
استدراك	١٨٨

من مؤلفات الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي

- ١ — نظرية اجتماعية في الرق
- ٢ — الفرق بين رق الرجل ورق المرأة
- طبعا باللغة الفرنسية، وحصل بهما المؤلف على شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بجامعة باريس
- ٣ — علم اللغة (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)
- ٤ — فقه اللغة (الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة)
- أطراها مجمع فؤاد الأول للغة العربية وتقرر تدريسهما بجامعة فؤاد الأول
- ٥ — الأسرة والمجتمع (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
- ٦ — المسؤولية والجزاء (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
- ٧ — اللغة والمجتمع (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
- صدرت هذه الكتب الثلاثة في مؤلفات « الجمعية الفلسفية المصرية » وتقرر تدريسها بجامعة فؤاد الأول
- ٨ — نشأة اللغة عند الإنسان والطفل (تقرر تدريسه بجامعة فؤاد الأول)
- ٩ — الوراثة والبيئة (تقرر تدريسه بجامعة فؤاد الأول)
- ١٠ — في التربية (الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة)
- (تقرر تدريسه بدار العلوم العليا)

- ١١ - البطالة ووسائل علاجها (نال جائزة المباراة الأدبية لسنة ١٩٣٥)
- ١٢ - الاقتصاد السياسي (الطبعة الرابعة ، مزيده ومنقحة)
- ١٣ - اللعب والعمل
- ١٤ - مواد الدراسة
- ١٥ - الهنود الحمر (ظهر في سلسلة « اقرأ »)
- ١٦ - فصول من « آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابي مع مقدمة وتصحيح وشرح وتعليق
- ١٧ - الصوم (فصله من مجلة كلية الآداب عدد مايو ١٩٥٠)
- ١٨ - الحرية والإخاء والمساواة في الإسلام (ألقى في مؤتمر الإسلام والإصلاح الاجتماعي ونشر في عدد خاص من مجلة الشؤون الاجتماعية في سبتمبر سنة ١٩٤١)
- ١٩ - رغبات المؤتمر الدولي الخامس للتربية العائلية (ترجمة عن الفرنسية وتعليقات ، بتكليف خاص من وزارة المعارف)
-

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

ينشر على إصدارها: الدكتور منصور فهمي باشا رئيس الجمعية، والدكتور علي عبد الواحد رافعي وكيلها

يشارك فيها أعلام الباشيين في الفلسفة والاجتماع . تتألف النشرة العلمية في الشروح وتجمل مسائل الفلسفة في متناول الجميع ، ضرورة لكل متقف وباحث .
ظهر منها :

١ — فيلسوف العرب والمعلم الثاني : للأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى

عبد الرازق

شيخ الجامع الأزهر والرئيس الفخري للجمعية

٢ — الأسرة والمجتمع (طبعتان) : للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٣ — شخصيات ومذاهب فلسفية : للأستاذ الدكتور عثمان أمين

أستاذ تاريخ الفلسفة المساعد بكلية الآداب

٤ — الحياة الروحية في الإسلام : للأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمي

الأستاذ المساعد للفلسفة الإسلامية والتصوف

بكلية الآداب

٥ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة : للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفي

رئيس قسم الفلسفة بجامعة فاروق

٦ - التصوف وفريد الدين العطار : للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك

٧ - المسؤولية والجزاء (طبعتان) : للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٨ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى : للأستاذ الدكتور توفيق الطويل
أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب
الإسلام

٩ - الدين والوحي والإسلام : للأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى
عبد الرازق

شيخ الجامع الأزهر والرئيس الفخرى للجمعية

١٠ - اللغة والمجتمع (طبعتان) : للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

١١ - إرادة الاعتقاد لوليم چمس : ترجمة الدكتور محمود حب الله
أستاذ الفلسفة وعلم النفس بكلية أصول الدين

١٢ - المشكلة الأخلاقية والفلاسفة : ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود
المدرس بكلية اللغة العربية
لأندرية كريسون

والأستاذ أبو بكر زكري
المدرس بكلية أصول الدين

١٣ - العلاج النفساني قديماً وحديثاً : للأستاذ حامد عبد القادر
الأستاذ بكلية دار العلوم

١٤ - الحقيقة في نظر الغزالي : للأستاذ سليمان دنيا
مدرس الفلسفة وعلم الكلام بكلية أصول الدين

١٥ - إخوان الصفا : للأستاذ عمر الدسوقي
الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

١٦ - المذاهب الفلسفية العظمى : للدكتور محمد غلاب
في العصور الحديثة
أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

١٧ - الأخلاق في الفلسفة الحديثة : ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود
المدرس بكلية اللغة العربية

والأستاذ أبو بكر زكري
المدرس بكلية أصول الدين

١٨ - العقل والدين لوليم چمس : ترجمة الدكتور حب الله
أستاذ الفلسفة وعلم النفس بكلية أصول الدين

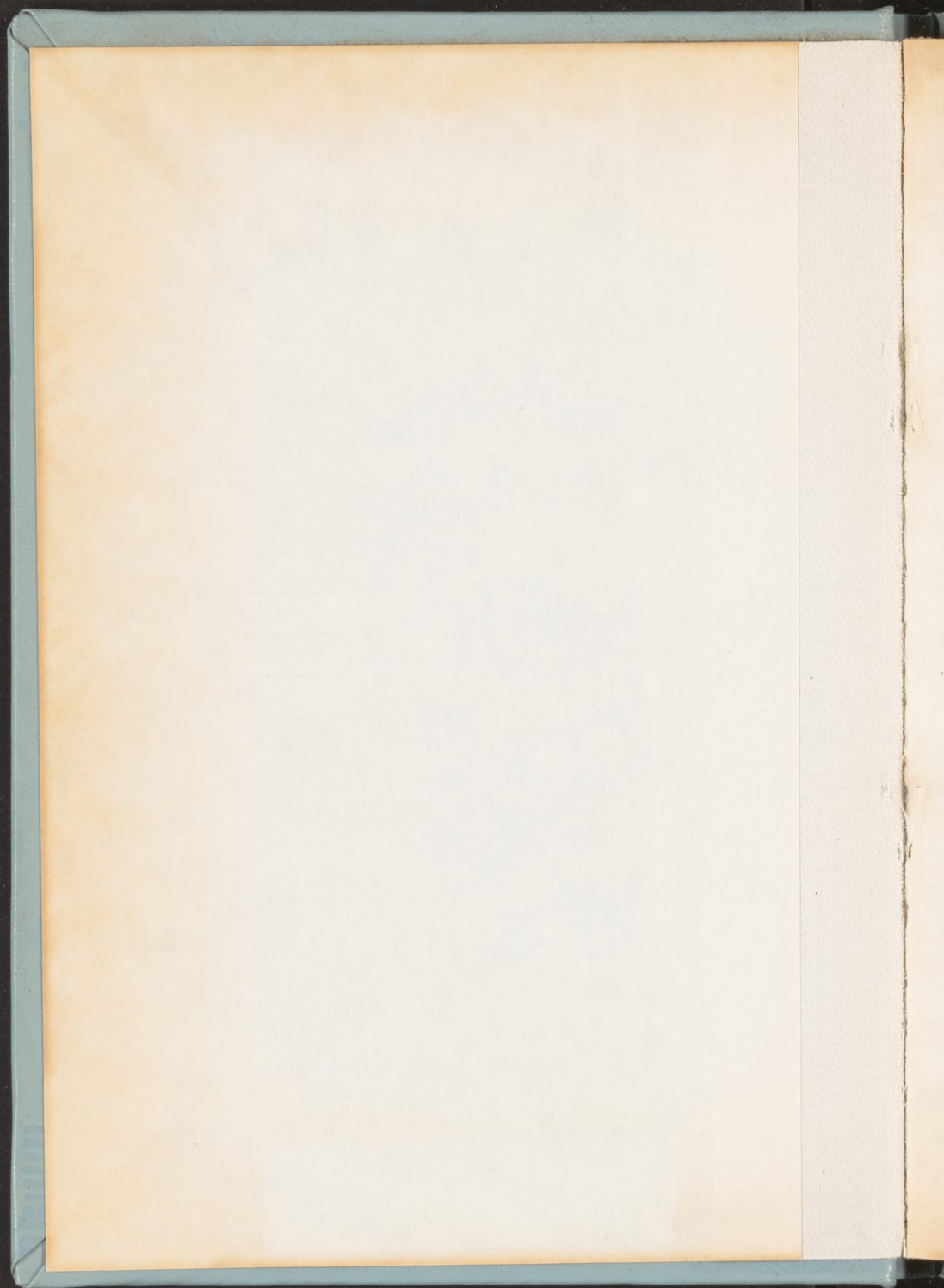
72 938 N 92 I

458



[illegible]

Demco 38-297



NYU - BOBST



31142 03183 1566

PJ6075 .W3 1951

al-Lughah